قصص

مصطفى تاج الدين الموسى

الخوف في منتصف حقل واسع

المتوسط

من الكتاب

يعجبني كثيراً هذا الديناصور الصغير، بعد مئة مظاهرة اعتقلوه حماة الفراغة، كان كلَّ ليلة بعد إرجاعه إلى الزنزانة إثر حفلة تعذيب في فرع الأمن السياسي، يجلس، يبتسم.. يشعل سيجارة وهو يضع ساقه المكسورة على ساقه المشوهة، ثمَّ يشرح للمعتقلين الشباب الطرق المضمونة لـ (تطبيق) بنات المدرسة الثانوية، مع ضرورة وجود (موتور) وأهمية (التشبيب) كعنصر ساحر لـ (المسطولات)، جمع (مسطولة) وهي ـ بحسب قاموس حارتنا لحمدو المنهوج ـ المراهقة الضائعة بين أغنيات هاني شاكر.

كلُّ الأغنيات، ذاهبة إلى التقسيم.

صباح هروبي من سوريا، قال لي الديناصور الصغير:

- اهرب من هنا، البلاد خربت.. أنت لك مستقبل، كاتب وابن جامعات وجميل، تلحس حالك. نحن الفاشلون سنبقى هنا، في هذه البلاد، أرسل لنا عرقاً برحمة أبيك..

وهربتُ بحقيبتين وكتب كثيرة وورقة عليها مقادير طبخة الأرز، قرأتُ كلّ الكتب ولم أقرأ هذه الورقة.

في ذلك الصباح البارد بعد كلام أخي، بكت بيوت الحارة، والمظاهرة.. صار فستانها أطول.

المتوسط

الخوف في منتصف حقل واسع

المؤلف:مصطفى تاج الدين الموسى / عنوان الكتاب: الخوف في منتصف حقل واسع
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
صورة الغلاف: الفنان رياض نعمة / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

طبع هذا الكتاب بالتعاون مع مؤسسة المزرعة للإبداع الفني والأدبي

جائزة المزرعة
للإبداع الفني والأدبي

ISBN: 978-91-87373-84-8

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / الحيدر خانة / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مصطفى تاج الدين الموسى

الخوف في منتصف حقل واسع

المتوسط

الإهداء

إلى الأستاذ يحيى القضماني.

أيضاً إلى حسام بلان

ودائماً إلى تاج الدين الموسى

تنويه

١. كُتبتْ هذه القصص بأوقاتٍ وفصولٍ وأمزجة مختلفة بين عامي ١٩٩٨/٢٠١٥.

- في سوريا: دمشق، حمص، اللاذقية، إدلب.

- وتركيا: عنتاب، الريحانية، مرسين، أنطاكيا.

٢. طُبعتْ هذه المجموعة القصصيّة برعاية كريمة من رجل الأعمال السوري أ. يحيى قضماني صاحب مهرجان وجائزة المزرعة للأدب والإبداع والفنون في السوريّة.

٣. تُرجمتْ بعض هذه القصص إلى (الإنكليزية/الفرنسية/الإسبانية) وأغلبها نشر في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية العربية.

الخوف في منتصف حقلٍ واسع

صباحَ اليوم انتقلتُ إلى منزلٍ قديمٍ في الطابق الثاني من بناءٍ شاحب، في حيٍّ بعيدٍ شبه مهجورٍ شمالَ المدينة.

عجوزٌ يجلسُ أمام باب البناء أخبرني أنّ أغلب سكان هذا الحيِّ قتلوا أو هاجروا في الحرب التي حدثتْ هنا منذ عقود، لم أهتم لكلامه. الأهمُّ أنني أصبحتُ بعيداً عن كل البشر الذين أعرفهم. بعد الآن لن يزعجني أحدٌ منهم، لهذا يجب أن أكتب هنا أفضلَ قصصي.

في هذا المنزل القديم يوجد عدّة غرف، و غرفةٌ واحدةٌ فقط تكفيني، لهذا اخترتُ غرفةً غربيةً لا يزعجها شروق الشمس، ووحده ضوء الغروب يكحّل نافذتيها بخجلٍ كلّ مساء.

بدأتُ بتنظيفها وترتيبها حتى منتصف الليل، وعندما انتهيتُ جلستُ على الأريكة لأشربَ فنجان شايٍ مع سيجارتين.

بقي أن أتخلّصَ من الحقائب، تسلَّقْتُ باب الحمامِ ثم قذفتُ بجسدي إلى داخل السقيفة لأكتشفها.

أزعجني كثيراً الغبارُ الذي ثار بوجهي، وبعد أن زال تأمّلتُ هذه الكراكيبَ غير الواضحة مستعيناً بضوءٍ خافت للقمر عبر كوةٍ صغيرةٍ أعلى الجدار.

انتبهتُ لوجود إبريقٍ قديم للشاي جانب ركبتي، فالتقطته وبدأتُ بمسح الغبار عنه. فجأةً خرج من فوّهته دخانٌ كثيفٌ سرعان ما تحول إلى مارد.

- شبّيك لبّيك عبدك بين يديك.. اطلب وتمنى يا سيدي..

- امممم.. أريد أن أكون فزاعةً في حقلٍ واسع..

- أمنيتك غريبةٌ يا سيدي !!.. لكنّ طلبك مستجاب..

ثم وجدتُ نفسي في منتصف حقلٍ واسع، وبساعدين ممدودين جانباً وعلى رأسي قبعة قش.

شعرتُ بالسعادة، ما أجملَ أن تكون مخيفاً بالنسبة للآخرين، حتى ولو كانوا طيوراً فقط.

مرّتْ الأيامُ وأنا منتصبٌ في هذا الحقل، استغربتُ كثيراً من الطيور هنا، وكأنّه لا يوجد في ذاكرتها زاويةٌ خاصة بالخوف، لم تكترث لوجودي مطلقاً، و ظلّتْ تحطّ على التراب لتسرق البذار بمناقيرها.

- أبي.. هذه الفزاعةُ غيرُ مفيدة.. لنتخلص منها..

صاح الابن الأصغر أمام والده، وهو يشير إليّ، ثم اقتربا مني مع بقية الأولاد. ما أحقرهم!!.. اقتلعوني من الأرض، وعندما غابتْ الشمس حملوني معهم إلى منزلهم في الطابق الثاني من بناءٍ متواضع، حيث رموا بي إلى داخل السقيفة.

لم أعرف كم مرّ من الوقت وأنا هنا، يُمكن سنوات.. يُمكن عقود..

مرميٌّ بإهمال على أرض السقيفة، لا شيء حولي سوى كراكيبَ مشوّهةٍ وغبارٍ كثيفٍ، وإبريقٍ قديم للشاي.

ليلةٌ باردةٌ للقهر المختبئ تحت السرير

لم يعرف من أين تأتي هذه الموسيقى، من طيفها الأنثويِّ الذي يسبح الآن في خياله؟.. يجوز، أم من المذياع فوق طاولته؟.. ربما.

انتبه له تحت الطاولة فانحنى ليضع أمامه قطعة جبن، ثمّة صداقةٌ غريبةٌ نشأتْ بينه وبين هذا الفأر بدايةَ هذا الشتاء.

فجأةً، دخل صديقه سالم الذي يستأجر معه هذه الغرفة وهو يمسح عن معطفه ما قد أصابه من المطرِ المنهمرِ في الخارج. الفأرُ تحت الطاولة، وطيفُ حبيبته في خياله هربا مذعورين إثر دخول سالم.. قال له سالمٌ بفرحٍ وهو يلهث:

- وأخيراً وافقَتْ أنْ تأتي هذه الجميلةُ لتمضي ليلةً في سريري.. يا إلهي كم أتعبتني، كلُّ الفتيات اللّواتي اصطدتهنّ في الجامعة بكفّ، وهذه لوحدها بكف.. تستحقّ، إنها الأجمل.. وأطيبُ الطبخات تلك التي تظلّ طويلاً على نارٍ هادئة..

ضحك سالمٌ ضحكاتٍ شهوانيّةٍ بينما نهادٌ يتأفف منّه، كان قد اعتاد خلال سنتين في هذه الغرفة على المغامرات الحمراءِ لـ سالم، المشهور بين كل شباب الجامعة بقدراته العجيبة والذكية على اصطياد الفتيات وإقامة العلاقات معهنّ، حتى صار بخبرته مرجعيّةً يُوثق بنصائحها لأيِّ زميلٍ يحلم بمغامرةٍ حمراءَ في الجامعة.

قال له نهاد بحُنق متلعثماً كعادته:

- واللهِ تعبتُ بسببك.. كلّ فترةٍ تجلب فتاة.. مرةً تضعني في الخزانة

ومرةً على السقيفة ومرةً تطردني لأنام عند جابر.. إلى أين أذهبُ الآن والمطر ينهمر في الخارج بغزارة؟..

- أقترح عليكَ أن تختبئ تحت السرير.. وأكيد، سماعك للهاثنا طوال الليل لن يُسيء لعذريتك..

قال سالم وهو يضحك بجنون، فلكمهُ نهاد منزعجاً من سخريته على كتفه، نهاد الذي لم يتذوق طعم الأنثى في حياته بعد، ولم يفكّر في هذا أصلاً بسبب خجله غير الطبيعي لدرجة أنه عندما يقف في ممرات الجامعة مع فتاةٍ لأمرٍ له علاقة بالدراسة، خلال دقيقتين فقط يصير وجهه أحمرَ من شدّة الخجل.

- ومن هي التي اصطدتها لتكون عشاءَك الليلة؟..

تساءل بلا مبالاةٍ نهادٌ وهو يوضبُ كتبهُ على الطاولة.

- يمُنى...

سقط قلبهُ ليتهشّم كمزهريّة، ارتجف كلُّ جسده.. يمُنى التي كانت منذ قليل تسبح في خياله بألوانها البريئة.. استدار إلى سالم وكأنه عجوزٌ قد شاخ في ثانية.

- أنت تكذب.. يمُنى محترمة وعاقلة..

من بين ضحكاته الخبيثة أجابه سالم:

- لا أحد محترمٌ وعاقلٌ في هذا العالم سوى غبائك..

- لا مستحيل.. أنت كاذب..

- بعد قليل تأتي لتتأكد بنفسك..

دارتِ الدنيا أمام عينيه، يمُنى التي يحبُّها بصمتٍ عن بعدٍ منذ سنتين، لا يمكن أن تكون هكذا، لطالما راقبها في المحاضرات ومقهى الجامعة وممرّاتها وحديقتها، وتبادل معها الملخصات بخجلٍ والابتسامات اللطيفة، كم تمنى لو أنه يلمس يدها.

رنّ الهاتفُ الجوَّال لـ سالم فتكلّم عبره مسرعاً ثم أغلقه.

- هيا.. لقد وصلتْ.. اختبئ، إن شاهدتكَ ستذهب.. أخبرتها أنّه لا أحدَ غيري في الغرفة..

ارتبك نهاد كثيراً كطفلٍ أضاع أمه في سوقٍ مزدحم، بلا وعي أسرع وصوت كعبٍ أنثويٍّ على الدرج يعلو مع خفقات قلبه، ليحشر جسده تحت السرير.

- دخلتْ يُمنى الغرفة ليخطفَ سالم قبلةً من شفتيها، ابتسمتْ له ثم تلفّتتْ في أرجاء الغرفة بريبة.

- أين صديقكَ الأبله؟..

- طلبتُ منه أن يذهب لينام عند جابر..

- يا إلهي!!، كيف تستطيع أن تعيش مع هذا الأبله بنفس الغرفة؟.. عليه أن يعيش جانب أمه فقط..

من تحت السرير تأمّل نهاد حذاءها وتأوّه بصمت، إنّه صوت يمنى.. هربتْ من عينه دمعة لتمتزج بغبار البلاط.

قدمّ لها سالم مشروباً.. رقصا قليلاً، ثم تبادلا الفكاهات البذيئة التي يخجل نهاد من أن يحكها أو حتى يسمعها.

بعد منتصف الليل بدأ سالم بتعريتها، تمنّعتْ قليلاً ثم استسلمتْ ليديه.

كانت ثيابهما تتساقط تباعاً أمامه على الأرض، وكل شيءٍ يسقط داخل روحه بضجيجٍ موجع.. عندما شاهد حمّالة صدرها تسقط، خوفٌ عظيم انفجر داخله فأغلق عينيه كمن يهرب من رؤية مجزرة. تحت السرير بين عتمةٍ وبردٍ ضاعتْ روحه.

ذبحه لهاثُهما.. صار سقفُ السرير يرتطم برأسه لينزفَ ألفَ قهرٍ وقهر، كلماتهما الماجنةُ في الأعلى كانت تصله على هيئة سكاكين لتتسلّى

بطعنه.. صار يهذي، همس لنفسه: (يا الله.. يا الله.. لماذا كلّ هذا الألم؟).

تمنّى لو أنه يرجع الآن إلى قريته البعيدة، اشتاق إلى كل شيءٍ فيها.

هذا السرير صار سفينةً لقراصنةٍ داكني الأرواحِ تبحرُ فوق مائه النقيّ.

بكى كثيراً.. بكى بحرقة، صار الغبارُ تحت السرير بسبب دموعه شيئاً يشبه الطين.

صوت لهاثهما كان أعلى من صوت بكائه، تنهّد.. تنهّد بصمتْ.

عندما أشرقتِ الشمسُ كان المطر قد انقطع، نهضتْ يُمنى بكسلٍ لذيذٍ عاريةً عن السرير، وهي منتشية، ثمَّ فتحتْ قليلاً النافذةَ ليدخل ضوءٌ شاحب لصباحٍ شتويٍّ إلى الغرفة، قبّلتْ سالماً في شفتيه ثم خرجتْ إلى المطبخ لتشرب.

انتهز سالمٌ الفرصة ليميل برأسه لأسفل السرير وهو يلوّح بكفه لصاحبه.. همس له، ثم نزل إلى الأرض ليلتقط كفّ صاحبه من العتمة ويسحبه.

دخلتْ يُمنى فشاهدتْ سالم جاثياً على الأرض، اقتربتْ فشهقتْ برعبٍ وهي تشاهد النصف العلويَّ لجسد نهاد ممدداً على الأرض خارج السرير.

نظر إليها سالم بعينين تائهتين، قال لها بصوتٍ مخنوق:

- لقد مات..

صرختْ وهي تصفع بيديها خديها، أسرعتْ لتجثو جانب الجثة فشاهدتْ حمّالة صدرها بيد نهاد.. وجهه كان أزرقاً، كسماءٍ صافية لا طيور فيها. شاحنةُ ندمٍ دهستْ ملامحها.

هو وهي دخلا معاً في بكاءٍ هستيريّ.

هناك.. على حافّة النافذة، كان الفأر واقفاً يراقبهم بصمت.

جثّةُ صديقه الميت على الأرض، نصفها تحت السرير.. عن يمينها فتاةٌ عاريةٌ وعن يسارها شابٌ عارٍ، وحولهم بكاءٌ مرير.

بهدوءٍ، استدار الفأر.. انسلّ من فتحة النافذة ثم قفز ليرمي بنفسه منها إلى الأسفل، خلال هذا الصباح الداكن.

قائمةُ الوفيّات

دخلتُ المقهى المتواضع في حارتنا متأبّطاً جريدة، لوّحتُ على عجل للرجال المتناثرين حول بعض الطاولات، ثم جلستُ لأتسلّى بحلّ الكلمات المتقاطعةِ مع كأس شاي.

لا شيء يغريني في الجرائد سوى الكلمات المتقاطعة، لكن.. الآن، توقّفتُ حائراً في منتصفها.. السؤالُ كان عن معركةٍ خاضها الزعيم ضد الأعداء وانتصر فيها.

قالوا لنا في المناهج الدراسيّة وفي التلفاز والراديو خلال سنوات أن الزعيم انتصر في كل المعارك التي خاضها ضدَّ الأعداء، وأنا هنا مثلُ كلِّ الناس.. لا أعرف للزعيم سوى معركةٍ واحدة، وقد خاضها ضد الناس أنفسهم وانتصر فيها منذ زمن بعيد.. لكنّها معركةٌ دون اسم.

تأفّفتُ منزعجاً وأنا أشتم الزعيم في سرّي، وأرمق بغيظٍ صورته المعلّقةَ في المقهى.

تركتُ الكلمات المتقاطعة.

في صفحةٍ أخرى من الجريدة قرأتُ عن الأثر الكبير للزعيم في نهوض الاقتصاد الوطني، انزعجت أكثر.. في صفحةٍ ثانيةٍ قرأتُ عن بطولة الزعيم لكرة القدم، صار الدم في عروقي يغلي.

ثم قرأتُ عن توجيهات الزعيم لتطوير الدراما التلفزيونية وصناعة النسيج في صفحتين متقابلتين، شعرتُ بالاختناق.

في أسفل الصفحة الأخيرة عثرتُ صدفةً على زاويةٍ بلونٍ داكنٍ عنوانها (قائمة الوفيات).

قلتُ في سرّي مبتسماً بخبث:

- أتمنّى أن يكون اسمُ الزعيم مكتوباً فيها..

دهشةٌ عارمة افترستْ ملامح وجهي.. لم أصدّق في البداية، وقفتُ لأقرأ بصوتٍ عالٍ الأسماء المكتوبة في هذه القائمة.

مع كل اسم، كان أحد الرجال في المقهى يلتفتُ نحوي ليرفع يده وهو يقول (حاضر).

شهقتُ بخوفٍ عندما قرأتُ الاسم الأخير..

كلّ الرجال في المقهى التفتوا إليّ، وتأمّلوني بصمتٍ، منتظرين أنْ أرفع يدي وأقول (حاضر).

الأفعى والمدينة

منذ الصباح الباكر، وهو هنا في هذه الصّالة الواسعة والواقعة على الأوتوستراد جانب مدينته الصغيرة.

لساعاتٍ وهو يعلّق سعيداً لوحاته على الجدران والأعمدة، يغنّي لها منتشياً ويتبادل الفكاهات الجميلة مع البشر المرسومين داخلها ثمَّ يضحك كطفلٍ صغير.

المُستخدَم العجوز لم يساعده، لكنه انزعج كثيراً من سجائره، واستغرب حديثه كالمجانين مع لوحاته.

لسنواتٍ وهو يحلم أن تُعرض لوحاته أمام الناس، لوحاته التي عاش معها لعقدٍ ونيّفٍ في قبوه الرطب، وأخيراً حصل على فرصةٍ ليقيم معرضه الفنيّ التشكيليّ الأوّل.

من بين لوحاته كان يتخيّل كيف سيعجب الناس بها، تخيّل شهقاتهم.. تخيل ابتساماتهم، وأيضاً تخيّل نفسه يفسّر لهم كل لوحة.

اللّوحة الأخيرة كانت كبيرة جداً، حملها بصعوبة ليعلقها في صدر الصالة، هذه اللّوحة بالذات يحبُّها أكثر من غيرها، كان قد رسمها مخموراً في ليالٍ كئيبة منذ سنوات.. ابتعد عنها وتأمّلها منتشياً.

على قماشها كان هنالك أفعىً ضخمة تفتح فكّيها على آخرهما، لتهمَّ بالتهام مدينة أمام فمها تماماً.

صار الوقت مساءً وحان موعد الافتتاح، وصل المحافظ وبعض المسؤولين

والصحفيين، استقبلهم مبتسماً مع المستخدم عند الباب.. استغرب من عدم وجود جمهور رغم الإعلانات عن معرضه في كل الشوارع الرئيسيّة.

خلال سبعِ دقائق مشى المحافظُ لثلاثِ لوحات وهو يشرحها له، والمصوّرون يلتقطون الصور، ثمَّ صافحه على عجلٍ غيرَ مهتمٍّ لشرحه. قال لأحد مرافقيه وهو يهمّ بالخروج:

- اشتروا غداً لوحتين من هنا.. تكون ألوانهما مناسبة لألوان جدران مكتبي..

ثمّة قبضةٌ لئيمةٌ عصرَتْ قلبه فتألمّ بصمت.

ذهب المحافظ مسرعاً مع مرافقيه والمصوّرين، حتى المستخدم العجوز ذهب أيضاً ليظلّ وحيداً هنا مع لوحاته، شعر أنّ دخول المحافظ إلى الحمام لقضاءِ حاجةٍ قد يأخذ منه وقتاً أطول من زيارتهِ لمعرضه.

مشى مُنكسرَ الروح إلى حقيبته العتيقة ليخرج منها زجاجات نبيذٍ رخيص، كان قد أدمن على شربه منذ سنوات.

صار يشربُ ويشرب بقهر، ظلّ يشرب حتى منتصف الليل، مشى مترنحاً كتائهٍ في أرجاء الصالة.. شتم بحنقٍ بشرَ لوحاته، فشتموه بغضب.. رغم أنّه هو مَنْ رسمهم سابقاً، لكنّ شتائمهم له كانت أبشع من شتائمه.

دارت الدنيا أمام عينيه وهو يقترب من لوحته الكبيرة، جمع كلّ البصاقِ في فمه.. تريث قليلاً، على القماش كانت تلك المدينة تنوس يميناً ويساراً كـ بندول ساعة، ثمَّ بصق عليها، سالتْ دمعةٌ على خدّه، وسالتْ بصقته على المدينة.

سقطتْ من يده زجاجةُ النبيذ لتتحطّم على البلاط، ثمَّ سقط هو لتتحطم روحه.. شتائمُ بشرِ لوحاته صارتْ أعلى.

لم يعد يحتمل، التقط بجنونٍ قطعةَ زجاجٍ مكسورٍ وغرسها في صدره.. سال دمهُ ليمتزجَ مع النبيذ الرخيص فوق البلاط.

في كل كوابيسِ حياته رغم بشاعتها، لم يتخيّل أنه سيموت ذاتَ يومٍ في معرضٍ للوحاته، ليصير معرضُه التشكيليُّ الأوّلُ قبراً بارداً لجثته.

بعد دقائقَ قليلة، كانت قد تأكّدَتْ من موته.. هذه الأفعى الضخمة قفَزَتْ بخفّةٍ عن قماش اللوحة، لتترك داخلَها المدينةَ مع تلك البصقة.

زحفتْ لتمرّ جانب جثته بلا مبالاة، وكأنّه ليس هو من رسمها سابقاً بفرشاته وألوانه.

هواءٌ باردٌ كان يعبث بـ هذا الليل الشتوي الذي لا قمرَ فيه، خرجتْ الأفعى من الصالة.. قطعتْ الأوتوستراد بهدوء، ثمَّ ـ وهي تبتسم بخبثٍ مع فحيحٍ بشع ـ دخلتْ المدينة.

فيلم بورنو للموتى

ـ علينا أن نتّفقَ أيها المطر.. أنا الذي أرشُّ على الطرقات أشباحي.. وأنت الذي يرشُّ على ذات الطرقات ماءه.. لا تبللني ولا أُبللكَ.. ما رأيك؟..

- موافق..

عبر زجاج نافذةٍ في المقهى، من فوق بخارِ الشاي، عقدْتُ هدنةً مع المطر.

لكن عندما خرجتُ وخلال شارعين، صار الماء ينقط من كلّي.. صرختُ بحنق:

- لماذا بللتني أيها الوغد؟.

- حتى تنمو قليلاً.. لا تزالُ نبتةً صغيرة..

للأوغاد حِكَمٌ جميلة، تماماً مثل هذا المطر.

استلقيتُ جانبها على سريري، والمطرُ في الخارج يبلّلُ كلَّ الأشياء بحِكَمِهِ الجميلة.

ثمّة أمرٌ غريب عصيٌّ على التفسير يحدث معي، كلَّ ليلةٍ عندما أنام وحيداً على سريري الضيّق، وبعد ساعات قليلة أسقط عنه أرضاً، مساحته لا تجعل نومي يطول كثيراً.

لكن عندما تأتي هذه الأنثى الجميلة لزيارتي، وتنام جانبي على سريري بعد كأسين من العرق وتبادل الخيبات والسجائر والضحكات الصاخبة.. لا أحد منّا يسقط عنه.

ذاكرةُ هذا السرير عجيبةٌ غريبة، تضيقُ على واحدٍ لكنّها تتّسّع لاثنين!.
هي لم تسمعه، هَمَسَ لي المطرُ عبر النافذة فوق سريري:

- يا غبيّ.. لو أن الأمر يحتاج لذكاءٍ لما زعلت منك.. انتبه.. جسدها هو الذي يحمي جسدك من السقوط..

أقنعتني يا مطر.

عندما عصرتُ بلطفٍ نهدها الصغير تأوّهتْ بهدوء.. فجأةً، أمّها الميّتةُ، وبثياب الصلاة دخلتْ عتمة الغرفة ووقفتْ بجانب السرير.

عندما عضّتني هي بلطفٍ من كتفي تأوّهتُ بصمتْ.. فجأةً، أبي الميّت دخل عتمة الغرفة مع سرطانه متّكئاً على عامود السيروم، ووقف بجانب السرير.

- يا مطر.. لماذا كلما مارسنا الحبَّ أنا وهذه الأنثى الجميلة..أولئك الموتى من أحبّائنا يقتحمون علينا عتمة غرفتنا؟.

- لأنكما كأيٍّ تعيسين تصلحان كـ فيلم بورنو للموتى..

و حاصرني صدى قهقهاتٍ مزعجة، نظرتُ إلى النافذة مستغرباً، اكتشفتُ أنّ المطر قد توقف عن الهطول.

عندئذٍ عرفت أن من أجابني، هو الشبحُ الذي يسكن داخلي.

الجميلةُ النائمةُ في عربة قطار

لهذه الدفاتر المُتناثرة ـ كجثثٍ أنيقة ـ على طاولتي، أرواحٌ فارغةٌ تثير الكآبة.. كنتُ قد اشتريتها من عدّة مدنٍ تنقّلتُ بينها خلالَ عام، علّني أكتب على صفحاتها روايتي.. لكن، ولأسباب مزاجيّةٍ داكنةٍ وغامضة، لا أزال حتى الآن أفشل في البدء بكتابتها.

هذه المدينة بعد وصولي إليها بأسابيعَ قليلة، صارتْ تصيبني بغثيانٍ مقرف، تبدو لي كامرأةٍ منقّبة، لا أستطيع أن أعيشَ أنا والبردُ في ذات المدينة.. قرّرتُ أنّ أتركها له ليستمتع وحده بنقابها. حجزتُ في رحلة منتصف الليل في القطار الذاهب إلى مدينةٍ بعيدة، دافئةٍ وجميلة، تطلُّ على بحرٍ ساحر.. يُقال إنها مدينةٌ بفستانٍ قصير، أكيدٌ أنها تصلح لكتابة رواية.. سوف يصلها القطار فجراً بعد أن يمرَّ بعدة محطاتٍ لعدة مدنٍ أخرى.

جمعتُ أشيائي المتواضعة، كتبٌ ودفاترٌ قليلة، ثيابٌ بسيطةٌ وعدةُ أقلامٍ في حقيبتي.. لطالما أثارتْ حقيبتي الكبيرة هذه ضحكات موظفي التفتيش في محطات سفري الدائم خلال سنة، لماذا كلُّ هذه الحقيبة الكبيرة لهذه الأشياء القليلة؟.. أنا شخصياً لم يكن لديّ إجابة، لهذا كنتُ أترك دائماً لخيالهم المتواضع حريّة العثور على إجابةٍ ما.

في الليل البارد للمحطة انتظرتُ القطار وأنا أدخن، ثمّة مسافرون بعددٍ قليل تناثروا حولي هنا وهناك. وصل القطار بصفيره الكئيب، نظرتُ في بطاقتي ثم صعدتُ العربة المحددة.

كنتُ أمشي بلا مبالاةٍ بين المقاعد عندما شهقتُ وأنا أتأمل تلك المرأة

َالجميلة، وقد غطّتْ في نومٍ عميقٍ على مقعدين متجاورين، وفستانُها قد انحسر فبانتْ ركبتاها الشهيّتان، أسرعتُ ناوياً الجلوسَ على مقعدٍ أمامها.

فجأةً اصطدمتُ جانب مقعديها برجلٍ جاء من الجهة الأخرى، إنّه زوجها. شعرتُ بالخجل، رغم هذا دعاني للجلوس بصوته المرتبك.. فجلسنا معاً بجوار بعضنا أمامها، ولم يكن هنالك أحدٌ غيرُنا في هذه العربة.

صرتُ أختلس النظر إلى ركبتيها دون أنّ ينتبه لي، ما أجملها هذه النائمة.

عبرنا عدّة محطات، كان المطر ينهمر بغزارةٍ في ليل هذه المدن والقرى المتتالية، لو أنها زوجتي لكتبتُ على جسدها كلّ ليلةٍ رواية، من كتفيها حتى هاتين الركبتين الشهيتين.. كم هو محظوظٌ هذا الأحمق، لو أنّه ينقلع من هنا لدقيقة واحدة حتى ألمسَ ركبتها برؤوس أصابعي، لأوّلِ مرةٍ في حياتي، ورغم عبور يدي على أجساد نساءٍ كثيرات، أشعر الآن برغبةٍ عارمةٍ داخل صدري لأن ألمس ركبتها الرخامية، رغبةٌ شاهقةٌ لا تأبه للأصوات الكئيبة للمطر، وصفارةِ وعجلاتِ القطار، ووجهِ هذا الأحمق.

كان القطارُ كلّما دخل نفقاً تغرق العربة في العتمة لهنيهة، قرّرتُ في سرّي: في النفق القادم سأنحني إليها وألمس ركبتها خلسةً خلال العتمة دون أن ينتبه لي زوجها. قبل قراري هذا دخلنا عدة أنفاق، بعد قراري هذا لم يعد هنالك أنفاق.. اللعنة على الأنفاق، عندما احتجتها اختفتْ.

اشتقتُ للسجائر.. استأذنتُ من زوجها ومشيتُ إلى الوصلة بين العربتين، أشعلتُ سيجارةً فدخل القطار في نفق.. شتمتُ حظّي، خرج القطار ليرجع الضوء فجفلتُ وأنا أشاهد زوجها أمامي بابتسامته البلهاء. طلب منّي سيجارة، ناولته واحدةً ودخنّا معاً بصمت. انتهتْ سيجارتي قبل سيجارته، إذاً لأمضي بسرعة إلى ركبتها وألمسها قبل نهاية سيجارته.. الحقيرُ لحقني فوراً فزفرتُ بحنق، ثم جلسنا معاً أمامها.

لم أكن أراقبُ شروقَ الشمس ولا النوارسَ عن بعدٍ والقطار يسير قريباً

من البحر، كنتُ أراقب انعكاس صورة جسدها النائم وركبتيها على زجاج النافذة.. ما أحلاها.

وصل القطار إلى محطة المدينة البحرية، نهضتُ وأنا أودّع بحسرةٍ جمالها بنظرةٍ أخيرة، أخذتُ حقيبتي ومشيت، سوف تستيقظ الآن ولن تعرف أنّ ثمّة رجُلاً غريباً جلس أمامها لساعاتٍ ومحطاتٍ من الليل وقد أحبها كثيراً و...

ثمّة أصابعٌ نقرتْ على كتفي من الخلف، التفتُّ.. إنه هو، قال لي متعجباً:

- سيدي.. لقد نسيت أن توقظ زوجتك.. هذه المحطة الأخيرة..

- زوجتي!!.. كنتُ أظنّ أنها زوجتك..

شهقنا، قلبي مع قلبه سقطا ليرتطما بأرض العربة، وركضنا كمجنونين إليها معاً ونحن نتعثّر ببعضنا.

من عادة البشر أنّهم عندما يوقظون بشراً آخرين يهزّونهم من أكتافهم، إلا أنا وهذا الرجل.. أردنا أن نوقظها لكن و دون وعي، أنا وضعتُ كفّي على ركبتها الأولى، وهو وضع كفّه على ركبتها الثانية لنهزّها بشدّة.

عندئذٍ مال جسدها عن المقعد ليسقط جثّة هامدة، انحنيا بفزع لنرمق الموتَ على ملامح وجهها، لا شيء لوّث صمتَ الموت في هذه العربة سوى أصواتٍ بعيدة للنوارس والأمواج.

لم نعرف عنها أيَّ شيء، لم نعرف اسمها ولا من أيّ محطّةٍ صعدتْ، ولا في أيّ محطّةٍ ماتت. الذي نعرفه أنّ ثمّة أحمقين غريبين ظلّا لعدّة محطّاتٍ خلال الليل الماطر يراقبان بشهوة ركبتي امرأة ميّتة.. موتُها أنسانا تلك الشهوة وأيقظ داخلنا حزناً هائلاً، وكأنّ موتَها عازفُ كمانٍ تسلل إلى داخلنا ليعزف موسيقاه الموحشة.

احترنا قليلاً بأمر جثّتها، ثم أفرغتُ حقيبتي الكبيرة من أشيائي القليلة وحشرنا بها جثّتها.

رفعنا بصعوبةٍ الحقيبة لنضعها على المقعد، تقاسمنا أشياءها، وأيضاً هو أخذ فردةً من حذائها وأنا أخذتُ الفردةَ الثانية للذكرى.. ومضينا بوجهين منكسرين ألماً تاركين خلفنا حقيبتي، تابوت جثّتها، لعلّ القطار ذاته يرجعها ثانية إلى مدينتها.

خلال يومين رتّبتُ غرفةً تطلُّ على البحر، جلستُ هذا المساء إلى طاولتي جانب النافذة، تأمّلتُ لسيجارتين ونصف زجاجة نبيذ الأمواج والنوارس.

تجاهلتُ كلّ دفاتري التي اشتريتها سابقاً من عدة مدن، لأبدأ بحماسٍ بكتابة روايتي على هذا الدفتر المتواضع، صفحةً أولى ثم ثانية فثالثة.. وهكذا.

أحببتُ كثيراً هذا الدفتر، مع أنني لستُ من اشتراه.. عثرتُ عليه منذ ليلتين هناك، في عربة القطار، حيث كانت تلك الجميلةُ قد جعلته على مقعدها وسادةً لموتها الهادئ.

أنا وإلهُ المنتحرين والحياةُ جميلة

كان جسدي مرمياً بشكلٍ فوضويّ على الرصيف، عندما اقترب مني إلهُ المنتحرين على هيئة عتمةٍ داكنة، جثا جانبي وتأمّل جراحي.. سرعان ما ابتسم وهتف بي ساخراً:

- ما فعلته ليس انتحاراً.. إنه مجردُ فكاهةٍ غليظةٍ يا أحمق..

قهقه كمخمورٍ ثم اختفى راجعاً إلى عالمه دون أن يصطحبني معه.

اقترب مني مسرعاً شابٌّ كان قد شاهدني أرمي بنفسي من نافذة غرفتي في الطابق الأول ناوياً الموت انتحاراً.

حملني وأسرع إلى سيّارةٍ قريبةٍ وهو يصرخ بي :

- لماذا فعلت هذا يا أخي.. الحياة جميلة.. الحياة جميلة.. الحياة جميلة..

في السيّارة، وطوال الطريق إلى المشفى وهو يردد أمامي:

- الحياة جميلة.. الحياة جميلة.. الحياة جميلة..

على سريرٍ في المشفى عالج الطبيب مع الممرضة جراحي، وبين الإبر المؤلمةِ وابتلاع الحبوب وقطرات السيروم، كان هذا الأحمق لا يزال يردد كببغاء:

- الحياة جميلة.. الحياة جميلة.. الحياة جميلة..

تمنّيتُ بحنقٍ لو أن هذا الجدار ينشقّ ليطلع منه صائدُ طيورٍ ويطلق النار على هذا الببغاء لأرتاح منه.

قال الطبيب:

- جراحك ليست خطيرة.. تستطيع أن تغادر المشفى في الصباح.
خرج الطبيب والممرضة، هذا الببغاء أصرَّ على البقاء جانبي حتى الصباح. يا إلهي، سأظلُّ جانبَ أسطوانةِ (الحياةُ جميلة) حتى الصباح!!.. تبّاً..

مرَّ الليل ببطء، تعبتْ روحي وهذا الساذج لم يتعب من ترديده لي: الحياة جميلة.. الحياة جميلة..

- ما هو مشروبك المفضّل؟..

- شاي..

اتّصلتُ بعامل البوفيه:

- إذا سمحت.. أريد فنجان قهوةٍ لي.. وكأس شايٍ لـ الحياة جميلة..
لا أظنُّ أن هنالك تعذيبٌ للروح أبشعُ من أن تمضي ليلك بجانب الحياة جميلة.

قبل أن تشرق الشمس، ذهب هذا الأبله واستلقى على تلك الأريكة لينام قليلاً كما نوى.

عندما سمعتُ صوت شخيره تنفّستُ الصُعداء.. لكن، فجأةً.. الطاولة، الكرسي، السرير، الساعة على الجدار، عامود السيروم.. كلّها صارتْ تردّد مع بعضها بصدىً داخل أذنيّ (الحياة جميلة.. الحياة جميلة.. الحياة جميلة).

جوقةٌ كاملةٌ من الغباء حاصرتْ روحي وفتكتْ بها.

عندما أشرقَتْ الشمس صمتت هذه الأشياء كلها، نهضتُ عن السرير ومشيتُ إليه.. هزرته من كتفهِ عدّة مرات، صرختُ عليه.. لم يستيقظ. لقد مات، انحنيتُ وحضنته كطفلٍ بين ذراعيّ ثم حملته لأمدّد جثّته على سريري.

رميتُ الغطاء الأبيض على وجه الجثّة وخرجت.

مشيتُ طويلاً في شوارع هذا الصباح البارد وأنا أدخّن، نسيتُ أمر جثّة الحياة جميلة، التي تركتها على فراشي في المشفى.

كنت أفكر: عليّ العثور على طريقةٍ مضمونةٍ تجبر إله المنتحرين على أن يقبلني كفردٍ في عالمه الصغير.. ويجب أن يكون هذا ـ على أبعد تقدير ـ خلال قصّتين، لا أكثر.

رحلةُ الانتحار تبدأ بغصن

بين سهمٍ وملعقة مرّتِ الحياة كقطارٍ داكن، ركّابه كلّهم خيباتٌ صامتةٌ تتبادل السجائر بملل في عتمة العربات.

الأسبوع الماضي.. المراهقةُ الصغيرة التي تحبّني وكنتُ أحبّها، قبّلتْ شاباًّ آخر.. انتبهتُ صدفةً، يا ليتها خسرتْ عليّ قبلةً واحدة.

وكعادتي، ومثل كل الكائنات (التشيخوفيّة) الخائبة.. ابتلعتُ بمرارةٍ هذه الخيبة مع كأس متّةٍ وسيجارة، ثم انتظرتُ حتى منتصف الليل حيث انتقمتُ منها انتقاماً عظيماً.

سابقاً.. كنت عندما أتأمّل صورها بعد كأسين من العرق، فقط فساتينها تسقط من الصور.

الآن.. عندما أتأمل صورها، هي مع فساتينها تسقط من الصور في عينيّ، كـ جثّةٍ على أرض غرفتي بين أعقاب السجائر.

أوّلُ رسالةِ حبٍّ كتبتها في حياتي كانت عام ١٩٩٤، ورميتها آنذاك لابنة الجيران مع كاسيت لـ هاني شاكر، كتبتُ لها وقتها: (تحياتي لمن دمّر حياتي)، ثم رسمتُ قلباً يخترقه سهم من الأعلى إلى الأسفل.. على ذيله أوّلُ حرفٍ من اسمها، وعلى رأسه أول حرفٍ من اسمي.

آخر رسالة حبٍّ كتبتها صباح اليوم، استيقظتُ ونهضتُ بهدوءٍ عن السرير حتى لا تستيقظ هذه الصديقةُ التي تكبرني بأعوامٍ وخيباتٍ وسجائرَ كثيرة.

تأمّلتُ جسدها العاري والمتناثر على السرير كأشلاءِ مزهريةٍ محطّمة.

ارتديتُ ثيابي ثم كتبتُ لها على ورقة:

(صباح الخير.. أنتظركِ مساءً في بيتي.. إذا كنتِ لا تجيدين طبخ الملوخيّة أتمنى ألاّ تأتي).

ثم رسمتُ على ذات الورقة مُعدّةً تخترقها ملعقةٌ من الأعلى إلى الأسفل، وعلى ذيلها أوّلُ حرفٍ من اسمها، وعلى فمها أوّلُ حرفٍ من اسمي.. ثم سرقتُ منها بضعَ سجائرَ وخرجت.

رحلة الانتحار تبدأ بغصن.

في المقهى، صديقي النادل المراهق وبعد أن جلب لي فنجان القهوة، همس بمرارة:

- حبيبتي تقبّلُ نادلاً آخر..

- صرختُ أمامه بحقد:

- إذاً.. انتقم منها انتقاماً عظيماً..

- كيف؟..

- انتظر حتى منتصف الليل.. ثم تسلل في العتمة إلى صفحتها الفيسبوكيّة وقمْ بإلغاء كل لايكاتك عن صورها ومنشوراتها.

خائبٌ ينصح خائباً، والنصيحةُ بحد ذاتها خيبة.

والدة صديقتي تعتقد أن الشجرة العالية هي حياةٌ طويلةٌ وجميلة. أنا أعتقد أن الشجرة العالية هي مكانٌ مثاليٌّ للانتحار، من يرمي نفسه من أعلى غصنٍ فيها محالٌ أن ينجو.

عندما جلب لي النادل فنجان القهوة الثاني، شهق وهو ينحني على أوراقي فوق الطاولة.

- من هذا الذي رسمته يا سيدي؟..

- إنّه والدي.. مات منذ سنتين..

- وهل كان والدك مخيفاً لهذه الدرجة؟..

- لا يا صديقي.. والدي لم يكن مخيفاً.. لكن حياته كانت مخيفة.

عندما أكلتِ السمكةُ الكبيرةُ بعضاً من الأسماكِ الصغيرة

ذهبتُ منذ أسابيعَ قليلةٍ إلى نهرٍ قريبٍ لأصطادَ الأسماك، أنا لستُ صيّاداً محترفاً.. لكنّ غباء الأسماك ساعدني آنذاك.

نظرتُ في الماء فشاهدتُ سمكةً كبيرةً تطارد مجموعةً من الأسماك الصغيرة، ابتسمتُ بخبثٍ وأنا أرمي عليها شبكتي التي لم تنتبه لها بسبب المطاردة.

عندما وصلتِ السمكةُ الكبيرةُ إلى الصغيرات قهقهتْ.. سرعان ما اختنقتْ قهقهاتُها في حنجرتها عندما انتبهتْ إلى أنّ شبكتي قد حاصرتها، غباءُ الأسماك مفيد جدّاً للمعدة.

التقطتُ الشبكة ورجعتُ إلى البيت، حيث قمتُ بشوائها ثم أكلتها مع كأسِ عرق.

انتشتْ معدتي فداعبتُ بطني المنتفخ بأصابعي وأنا أتجشّأ بغلاظة. لكن، وبعد ساعاتٍ قليلةٍ ثمّة ألمٌ طفيف شعرتُ به من جهة بطني.. استغربتُ لكنني تجاهلته.

ومرّتْ الأيام وألم بطني يزداد، لم أعد أحتمله فزرتُ عدّة أطباء، ولا واحد منهم عرف سبب هذا الألم أو الدواء المناسب له.

أحدهم نصحني بزيارة طبيبٍ نفسيّ، تعجبتُ.. ما علاقة علم النفس بـ بطني؟..

ذهبتُ البارحة إلى عيادة الطبيب النفسي، فحصني طويلاً وسألني أسئلةً عديدة، بعضها دون ثياب، أسئلةٌ محرجةٌ للغاية.

مسطولٌ هذا الطبيب، ما علاقةُ أوجاع بطني بـ نساءٍ عارياتٍ يسبحن في نهر، مثلاً؟!.

كذبتُ عليه وأخبرته أنني أمارسُ فقط القصّة القصيرة.

سألته بعد كل هذا:

- هل عرفتَ سبب الألم؟..

أجابني وهو يتأمل تلك الأوراقَ الكثيرةَ التي كتبها حول ما يجري في بطني:

- امممم.. يا صديقي.. يوجد داخلَك مشاكل نفسية خطيرة..

- أف؟؟!!... لم أفهم.

- داخلُك يوجد مصطفى كبير.. وهو يطارد منذ سنوات - أيضاً داخلك - مجموعة من المصطفات الصغيرة. وعلى ما يبدو أنّه في الأيام الأخيرة استطاع مصطفى الكبير - داخلك - أن يلتهم بعضاً من المصطفات الصغيرة..

عندئذٍ اكتشفت أنّ بطني هو عبارةٌ عن نهرٍ تجري فيه العتمة.

زعيمُ الحمقى

عبر نافذتين في بلادٍ غريبة تحدّثنا بصمت.

عَينَيّ سألتها : ـ ما اسم مدينتك السوريّة التي نزحتِ عنها؟..

جسدها العاري أجاب: ـ نسيتُ أسماء المدن السوريّة..

أحتاج لألف سيجارةٍ وسيجارة حتى يستوعب عقلي جيداً جسدها العاري.

ثمّة أحمقٌ صرخ داخلي لحظةَ ملل: ـ اللهُ غير موجود..

أحمقٌ آخر يعيش داخلي أيضاً، أجابه غاضباً: ـ الله موجود..

مجموعةٌ من الحمقى تعيش داخلي، تنقسم بين مؤيّدٍ ومعارض للأولَيّن، ثم تنشب بينهم معركةٌ عظيمة تفتك بروحي.

جلستُ أمام نافذتي لأراقب جارتي عبر نافذتها وهي تغيّرُ ثيابَها، ثيابُها التي لا تغيّرها إلا عندما تنتبه لوجودي خلف نافذتي.

كلّ أولئك الحمقى داخلي شهقوا وصمتوا.

الذين كانوا يصرخون داخلي (الله غير موجود) تمتموا بذهول (سبحان الله).

الذين كانوا يصرخون داخلي (الله موجود) همسوا بشتيمةٍ طالت كل الآلهة.

ظلّتْ سيجارتي مُعلّقةً بين شفتيّ زمناً طويلاً.

كنّا عدةَ شبانٍ من عدّة مدن سوريّة، صعدنا مع حقائبنا الصغيرة قارباً متواضعاً وأبحرنا مبتعدين عن الشاطئ، لا أحد منا لوّح مودعاً تركيّا.. وكأنها مجرد كابوس.

ناصر - وبسبب زوربا - كان يريد أن نصل للشواطئ اليونانيّة.

عبّاس - وبسبب فلليني - كان يريد أن نصل للشواطئ الإيطاليّة.

أنا - وبسبب علي عقلة عرسان - خفتُ أن يأخذنا القارب - صدفةً - إلى الشواطئ السوريّة.

لكنّ القارب أراد شيئاً آخر.. تحطّم بنا لنغرق وتتناثر جثثنا في قاع البحر الأبيض المتوسط.

تاهتْ روحي طويلاً فوق البحر قبل أن تصل لتركيا، فطارتْ فوق شوارعها حتى بيت جارتي الجميلة، لتدخل غرفتها بهدوء.

كان الوقت ليلاً وجارتي كانت نائمة، اقتربتْ منها روحي لتغطّيها، و خوفاً عليها من برد المساء مشتْ إلى النافذة تنوي إغلاقها.

عندئذ، روحي شاهدته.. رذاذُ سيجارته كان يضيء ربعَ وجهه.

كشبحٍ كان زعيمُ الحمقى لا يزال هناك خلف نافذته في عتمة غرفته، ينتظر بمللٍ أن يغيّر الكون ثيابه.

الفيديو المسرّبُ للقبلة الحلوة
(أنا والقذائفُ والعصفورُ وكتفكِ العاري)

في الحرب أتّكئ جيداً على سجائري حتى لا أسقطَ في مجزرةٍ عابرة، بينما القنّاصُ في أول حارتنا يغيظه دائماً دخان سجائري كلما مررت، حيث ملامح وجهي تضيع بين السحب التي أنفثها بكثافةٍ من فمي.

التّعاسةُ الجالسة في باص النقل الداخلي، تشعلني لتدخنّني على مهل، من باب شرقي حتى السكن الجامعي.

على شرفةٍ شاحبةٍ في السكن الجامعي، ثمّة شابٌ يتأمّل خلسةً أردافاً مكتنزةً لصبايا مررن من هنا.. يتنهد وينحني على أوراق المحاضرات، ليرسم عليها علبةَ سردينٍ رخيصة، ثمّ يلتهمها.

أنطفِئُ في منتصفي، فتعثر التعاسةُ على عود ثقابٍ في كراجات العباسيّين، لتشعلني ثانية. ثم تتمشّى حتى مكتبة رصيفٍ تحت جسر الرئيس، تنحني على الكتب، وتشتري مجموعةً قصصيّةً لي، لم أكتبها بعد.

تحت جسر الرئيس عاملُ النظافة وبملل، يكنس من بين (السرافيس) ما تبقّى من صوت عدنان بوظو (كوووووول لسوريا) أثناء أغنيةٍ لـ نعيم الشيخ لا يشرب فيها العرق.

على باب المركز الثقافيِّ الفرنسيّ، تعبُّ التعاسةُ ما بقي فيّ من دخان، ثم تقذفني بعيداً وتدخل لتشاهد فيلم (ثلاثة ألوان: أزرق).

في مقهى النوفرة جلسنا أربعتنا لنشرب شاياً ثقيلاً.

قال لي جان لوك غودارد:

- الانتحار.. هو آخرُ حريةٍ متبقيةٍ لدى الإنسان.

ثمّ همس لي صموئيل بيكت:

- أنت على الأرض.. لا يوجد علاجٌ لذلك.

بينما رياض الصالح الحسين يلف ذراعه اليسرى حول كتفي، يبتسم كطفلٍ ويصيح بالقمر:

- صوّرنا..

آنذاك، ثقافتي الدينيّة كانت متواضعة مثل كلِّ طلائع البعث، سألت محتاراً مدرّس التربية الدينية أمام التّلاميذ:

- أستاذ.. هل (ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً..) لـ الله أم للسيّد الرئيس؟.

لم يجاوبني، كاد أن ينفجرَ غضباً، وثمّة مشاجرةٌ عنيفةٌ تنشب داخله بين آيات الله وأقوال السيّد الرئيس.

الثلاثاء الماضي، التقطت التعاسةُ قطعةَ قماشٍ باليةٍ ثم تسلّقت، لتمسحَ الغبار المتراكم عن وجه تمثال يوسف العظمة.

كم أربكت أمي صباحات طفولتنا خوفاً من التأخرِ عن (دفتر الدوام)، بينما صوت عازار حبيب عبر المذياع (شو قولك) يتشرّد في أرجاء بيتنا، نحن خطّةٌ خمسيةٌ للتعاسة.

تشتمني التّعاسةُ وهي تسعل، ثمّ تبصقُ في الشوارع (سرافيسَ) حزينةَ الجهات.

من تحت رئتي اليسرى، سقطت علبةُ سردينٍ على طرف الرصيف، عندما توقفتُ أمام المتحف الحربي.. قلبي، علبةُ سردينٍ رخيصة.

أرجوك.. انتبه، التّعاسةُ الجالسةُ هناك.. في آخرِ باصِ النقلِ الداخلي، لم تقطع تذكرة يا شرطيَّ الكون.

كم هو بشعٌ هذا العالم.

أتذكرين يا حبيبتي تلك القبلةَ الحلوةَ التي زرعتها على شفتيك أثناء جلوسنا في حديقة (العائدي) بجامعة دمشق منذ ثلاث سنوات.

يومَها – بكلّ جرأة – أمام عشرات الطلاب والطالبات، انحنيت وقبلتك فمال رأسك إلى كتفي، ثمَّ مرّرتُ أنفي على رقبتك، عندئذٍ.. أصابعكِ تشبثت بقماش قميصي الرخيص، رغم هذا سقطتِ في آهةٍ طويلةٍ وناعمة.

على باب الجامعة همستِ لي:

- لأجل قبلتك الحلوة سأغفر لك كلَّ أخطائك السابقة..

ثم ابتسمتِ وذهبتِ، لأبقى مع ظلّي على الرصيف، قلتُ لـ ظلّي:

- عن أيّة أخطاء تتحدث هذه المسطولة؟ هل فناجين القهوة والشوكولا التي اشتريها لها أخطاء؟، ليتها ترتكب بحقّي مثل هذه الأخطاء. والدها لديه معمل، أما والدي فلديه سرطان فقط!..

بعد يومين زرتكِ في غرفتكِ بدمشق القديمة، ثم قلت لكِ مرتبكاً:

- أنا أحبّكِ.. أنت أجمل برشلونة في حياتي..

ثم انتبهت لوجود الكثير من الدببة الصغيرة المعلّقة على الجدار فوق سريرك، قلت في سرّي: (هذه المسطولة تحب الدببة)، لهذا حاولت أن أقبّلك تماماً كما تقبل الدببة بعضها لتحبيني أكثر، فصرخت عليَّ بحنق:

- يا دب..

- لكنَّك تحبين الدببة!!..

وأشرتُ إلى الجدار.

- أحبّها كشكل وليس كسلوك..

تأفّفتُ منكِ ثم أشعلت سيجارة وأنا أقترح عليك أن تعلّقيني كدبٍّ آخر مدى الحياة إلى جانب تلك الدببة على جدارك، لم أفهم لماذا

ضحكت وقتها، أظن أنك كنت موافقة، لكن تلك الدببة لم توافق، كما أفهمني ظلّي فيما بعد.

ومضت ثلاث سنوات، ولم نعد نرى بعضنا، أخذتنا الحياة مجّاناً إلى جهاتها المُعتمة، وهذه الحرب القاسية جعلت المسافة بين مدينتي ومدينتك بعيدة جداً، لهذا صرنا نكتب لبعضنا آخر أخبار تعاستنا على (التشات) في (الفيس بوك).

قال لي قصيّ ليلة البارحة على الهاتف:

- أبو تاج.. عثرت على فيديو لكَ وأنت تقبِّل فتاة على(اليوتيوب).. نفس الفيديو لكنَّه موجود أكثر من مرَّة تحت عناوين مختلفة.

لم أستطع النوم، كنت سعيداً.. البشريّة كلها سوف تشاهد قبلتي، وسوف تتصل بي مونيكا بيلوتشي بعد أن تسحرها قبلتي، لتعرض عليَّ بطولة فيلمٍ معها فيه ألفُ قبلةٍ وقبلة وأشياءُ أخرى.

لو أنَّني انتبهت في ذلك اليوم إلى أنّ أحدَ الطلابِ يصورنا خلسةً بعدسة هاتفه الجوال في حديقة الجامعة، لكنت علّقت لافتةً على الشجرة خلف مقعدنا عليها:

- هذا الشاب الوسيم اسمه مصطفى.. رقم هاتفه الجوال هو (....)، حسمٌ خاصٌّ للسمراوات.

في الصباح جاء قصي وقام بتنزيل المشاهد على لابتوبي.

شهقت متعجباً بعد دقيقتين، المشهد ذاته، قبلتنا ذاتها في سبع نسخٍ مكرّرة، لكنّ الذين نسخوها على (اليوتيوب) أعطوها عناوين غريبة:

١. شاهد قبل الحذف.. أخٌ وأختُه يمارسان الرذيلة في حديقة منزلهما ببلاد الكفار الدانمارك.

٢. خطيرٌ جداً.. داعش تعتقل شاباً وخطيبته بوضعيَّةٍ مشبوهةٍ في

حديقةٍ بالرَّقة وتطبق عليهما حدَّ الزنى.

٣. زواجُ المتعةِ عند الروافض في إيران +١٨.

٤. مريعٌ للغاية.. شبّيحٌ قذر يغتصبُ معتقلةً في حديقة فرع الأمن.

٥. مجاهدٌ من لواء التوحيد يمارس جهادَ النكاح في حديقةٍ بحلب.

٦. للكبار فقط.. متظاهرٌ ومتظاهرة في خلوةٍ مع بعضهما بعد المظاهرة.

٧. فيديو مسرّبٌ من الجنة لـ ابن تيميّة مع إحدى الحوريّات.

كم هو بشعٌ هذا العالم الذي خلقته يا الله.

أولئك الأوغاد، أطلقوا على قبلتنا الحلوة أسماءَ أعدائهم.

أتذكرين يا حبيبتي صورتكِ المثيرة التي أرسلتها لي عبر التشات منذ أسابيع؟.

الصورةَ الرابعة، تلك التي ترتدين فيها بلوزة ضيقة، قماشها الرقيق يغطي كتفك الأيمن لكنه يتقلص جنوباً ليترك كتفك الأيسر عارياً.

وفيها وجهك يميل بلطفٍ إلى كتفك هذا، وكأنك في سرك تنحازين له، وليس لذلك الذي يحتلّه القماش.

وقتها كتبت لكِ:

- جسدكِ جميل.

فكتبتِ لي:

- أرجوك، لديّ روح.. لا تعاملني كجسد (مع سمايل منزعج)، كلّ الرجال هكذا.. لا يفهمون الأنثى إلا كجسد (سمايل غاضب).

- حقك عليّ.. في صورك التي أرسلتها لي، أنا شاهدت تنانيرَ قصيرةً وقماشاً ضيّقاً ومكياجاً كثيفاً (سمايل قبلة ذات الغمزة) لكنّي لم

أشاهد روحاً، في أيِّ صورةٍ تحديداً توجد الروح؟. أخبريني لأدقّقَ بها جيدًا، بصراحة.. نظارتي لا تلتقط الأرواحَ بسهولة، يمكن لأنّها رخيصة.

- تفكيرُك هو الرخيص (سمايل يشتم).

ضحكت، لم أهتمّ لكلماتك، تذكرت هيفاء وهبي عندما قالت ذات لقاء بحزن:

- هنالك من يعاملني وكأنني مجرّدُ جسد..

وكما توقعتُ كتبتِ لي عن معاناتك مع المعجبين، مستعينةً بمظاهرةِ (سمايلات).

صورتكِ ذات الكتف العاري، سحبتُ نسخةً مكبرةً عنها، وضعتها في إطارٍ جميلٍ ثم علقتها أمامي.

وهكذا.. كلّ ليلة، قبل القذائف أزرع على كتفك العاري قبلاتٍ كثيرةً وأستنشقه بمتعة، ثم أمرّر لساني عليه لأتذوقَ أنوثتك الشهية.

وأثناء القذائف أحفر فيه قبراً يناسبني، وبعد القذائف أمسح عليه بكفّي كما يمسح أحدهم على عينيّ ميتٍ ليغلقهما إلى الأبد.

استيقظت منذ ساعتين وذهبت لأعدّ فنجان قهوة، وعندما رجعت إلى غرفتي انتبهت إلى أن عصفوراً قد تسلل من الشباك ثم اقتحم صورتك ليحطّ بكلّ وقاحةٍ على كتفك العاري. شهقتُ والفنجان الكبير للقهوة يسقط من يدي، قلت له بحنق:

- إذا سمحت اخرج الآن من هذه الصورة.. كتفها لي..

- انصرف من أمامي.. كتفها ليس لك..

- أيها العصفور الحقير، هذه الجميلةُ تحبني، لهذا أرسلت لي هذه الصورة و...

- يا أحمق.. هي لا تحبك، لكنها عرفتْ أنّ صديقتها ترسل لك صورها عبر التشات.. لهذا أرسلت لك أيضاً صورها، حتى تطرد صديقتها من خيالك، وهذا كل ما في الأمر..

الآن فقط فهمتُ سرَّ إرسال صوركِ لي، مع أنني لا أنا ولا قصصي التي أنشرها على (الفيس بوك) ننال إعجابكِ، العصافير لا تكذب.. هكذا قالت لي جدّتي في حكايةٍ قديمة.

أسرعتُ إلى غرفة الكراكيب حيث نرمي الثياب البالية، وبدأت بتمزيقها بلؤمٍ إلى قطعٍ صغيرة، تصلح أن تكون لعناتٍ قماشيةً أصبُّها بغضبٍ على كلِّ الأكتاف الأنثوية العارية في هذا العالم.

فجأةً.. انفجرت قذيفةُ جانب البيت، تحطّم الشباكُ فوق رأسي، لتنغرس في كلّ جسدي شظايا الزجاج.

نزفت كثيراً، وأنا أحتضر قفزتِ أنت عن صورتكِ ليظلّ العصفور معلقاً في فراغها، وتتبعتِ آثار خطواتي الملوثةَ بالقهوة على السجاد حتى غرفة الكراكيب.

انحنيت عليَّ لتقبليني برقة، ثم همستُ لكِ بوصيتي الأخيرة.

بعد أن متُّ دفنتني – مشكورةً – داخل القبر الذي كنتُ قد حفرته سابقاً في كتفك العاري، وكما أوصيتكِ كتبتِ على شاهدة قبري ما يلي:

(هنا يرقد جثمان الهدف الرائع الذي سجّله اللاعب وليد أبو السل في مرمى المنتخب الفرنسي عام ١٩٨٧، وقد عاش هذا الهدف حتى أواخر عام ٢٠١٢ حيث قتلته الحرب).

جثّةٌ في خزانة

منذ ساعات وأنا أشعر بمللٍ غير طبيعي، وبعد الكثير من السجائر كتبتُ قصّةً قصيرةً عن جثّةٍ تعيش في خزانة، وكلما فتح صاحب الخزانة بابها تناوله هذه الجثةُ قميصاً أو بنطالاً من ثيابه، ثم يغلق عليها الخزانةَ ليرتدي ثيابه ويخرج.

وعندما يرجع يخلع ثيابه ويفتح الخزانة مجدداً ليناول الجثة الساكنة فيها ثيابه ثم يغلق عليها الباب.. بينما هي في عتمة الخزانة تعيد توضيب وترتيب وتعليق ثياب هذا البشري.

عندما انتهيتُ من كتابة هذه القصّة، وفوراً.. كلُّ الأشباح التي تسكن في رأسي وضعتْ (لايكاً) عليها.. فابتسمت، غالباً.. أفضل القصص التي أكتبها تأتي بعد حالات مللٍ غير طبيعيٍّ ثم تباركها أشباحي.

رميتُ الأوراق جانباً، أردتُ أن أخرج لأمشي قليلاً وأُمسّي على صديقي (الترام)، لكن هنادي حذرتني على الهاتف:

- لا تخرج اليوم من غرفتك.. أحد السوريين قتل أحد الأتراك في عنتاب والشارع يغلي..

تأفّفتُ، وبعد فنجانين من القهوة اتصلتُ بمهند، وأخبرته بأنني لا أنوي الذهاب معه إلى اليونان عبر القوارب، بسبب سوء تفاهمٍ قديمٍ بيني وبين كلِّ البحار.

زفرتُ بحنق والملل يعصر رئتيّ.. عندئذٍ تسللتُ إلى الصفحة

(الفيسبوكية) لتلك الجميلة، وتجوّلتُ لدقائقَ بين صورها الحلوة، وضعتُ لها عدّة (لايكات) وأنا أهمسُ لنفسي :

- أتمنّى ألا تفهم (لايكاتي) تحت صورها على أنها حبٌّ ومشروعُ خطبةٍ وزواج..

ضحكتُ كثيراً وسرعان ما سقطتُ مجدداً في الملل، قررتُ أن أنام.. ونمت.

عندما استيقظتُ كانتِ العتمةُ حولي كثيفةً جداً، حاولتُ أن أنهض لكنني فشلت.. استغربت.

فجأةً، شيءٌ ما فُتح أمامي ليرتطم بوجهي ضوءٌ قوي.

يدٌ بشرية غليظةٌ امتدّتْ نحوي وناولتني قميصاً.. وقبل أن أفهم شيئاً، اختفى الضوء.

المعطف

لشتاءين وهو لا يغادر أحلامها، لشتاءين وهي تحرم نفسها من كل شيء حتى تدّخر ثمنه.

لشتاءين وهي تتخيّله على كتفيها في أحلامٍ وردية.

الآن فقط أصبح بحوزتها كلُّ ثمنه، جمعتْ صديقاتها ليشاركنها هذه المناسبة العظيمة في حياتها، وأسرعن إلى أضخم معرضٍ للمعاطف في المدينة، حيث اشترتْ معطفَ فروٍ فاخراً جداً.

أثناء العودة بكتْ فرحاً في السيارة وصديقاتها يزغردن.

في منزلها وتحت صمت الصديقات، اقتربتْ من تلك المرآة الطويلة وهي تحبس أنفاسها في صدرها، ثم ارتدتْ على جسدها معطف الفرو.

عندئذٍ عاصفةُ تصفيقِ صديقاتها هبّتْ بصخبٍ على الغرفة، مع صدى شهقاتهنّ الأنثوية.

هي تمنّتْ في سرّها خلال ثانيةٍ أن تموت كلُّ الفصول الثلاثة، وأن يظلَّ فصل الشتاء فقط على قيد الحياة، ليظل هذا الفرو على كتفيها إلى الأبد.

لدقائقَ ظلّتْ تداعب معطفها وكأنه عشيقها، وتتأمله بحبٍّ على السطح الزجاجيّ للمرآة، وقد سحرها جماله، فانتشت روحها.

لكنها لم تنتبه أبداً، أنها هي نفسُها لم تكن موجودة في المرآة نهائياً. معطف الفرو وحده، كان موجوداً في المرآة.

أجملُ أحذية سندريلا

أحبّته جداً بعد أن شاهدته أولَ مرةٍ على شرفته من شرفتها، عندما سكن منذ أشهرٍ قليلةٍ أمام منزلها.

حاولتْ كثيراً في هذه المساءات الصيفية، وبكل ما في خيالها من ألاعيبٍ أنثويةٍ أن تلفت نظره إليها، لكنه لم ينتبه أبداً، ليظل كما هو.. يشرب القهوة ويدخّن بملل.

ذات مساء خطرت ببالها فكرةٌ رومانسية، أسرعتْ إلى باب بيته حيث وضعتْ فردة حذائها أمامه وعلّقتْ عليه وردة، رنّتْ الجرس وهربتْ لترجع إلى غرفتها، حيث استلقتْ على سريرها وراحتْ تتخيله كيف يطرق أبواب الجيران، ويطلب من الفتيات دسّ أرجلهنّ في فردة حذائها، حتى يصل باب بيتها ليكتشف أنها هي صاحبة الحذاء، فيحضنها ويقبلها، وبعد أسبوعٍ يتزوجها.

لكن لا شيء من هذا حدث، مشتْ إلى شرفتها فشاهدته لا يزال يدخن بملل، ووردتها على طاولةٍ أمامه.

تنهّدتْ ثم أسرعتْ ثانيةً إلى باب بيته، لتضع الفردةَ الثانيةَ لحذائها.. رنّتْ جرسه وهربتْ. انتظرته طويلاً في غرفتها لكنه لم يأت.

خمّنتْ في سرّها أنه قد ظنها عجوزاً لأنّ حذاءها من النوع المتواضع.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى السوق واشترت حذاءً جميلاً.. وفي المساء ولمرتين متتاليتين وضعتْ فردتي حذائها على درجه، لتهرب بعد أن ترنَّ جرسه، لكنه لم يأت.

وهكذا، لأيامٍ وهي تشتري بلا تعبٍ الأحذيةَ النسائية الجميلة في الصباحات، لترميها على الدرج أمام بيته في المساءات، علّه يلاحقها ويفتش بين أرجل الفتيات عنها، لكنه لم يفعل.. إنّما ظلّ على شرفته جالساً يدخن بمللٍ كعادته.

هذا الصباح كانت تمشي في شوارع السوق وهي تتأمل زجاجَ متاجر الأحذية، تنوي شراء حذاء جديد لأجل خطتها التي لم تمل منها بعد.

شهقتْ بألم عندما لمحته بين باعة الأرصفة يدخّن بملل، أمامه طاولته و عليها كلُّ أحذيتها الجميلة، اقتربت منه فلم يعرفها.

عندئذٍ.. قبل دمعتها بقليل، وبسعرٍ رخيصٍ جداً.. اشترتْ منه أجملَ أحذيتها.

حبٌّ بين المرضى

بدأ كلُّ هذا في الشتاء الماضي، وبين هذين الشتاءين كانت قصّةُ حبنا تنمو افتراضياً في هذا العالم الافتراضي.

لأشهرٍ أنا وهي نكتب لبعضنا الرسائلَ كل ليلة.

حبٌّ وأحلام، مخاوفٌ كبيرةٌ وشهواتٌ مكبوتة، مجازرٌ ومقابر، ومرةً تحدثنا عن الملوخيةِ ولحم القطط المسلوق في بيوت المحاصرين منتصف الحرب.

كعادتها كلّ ليلة.. بين الرسالة والثانية تمرّ نصف ساعة، لتمر الليلة كلها برسائل قليلة منها.

طبعاً خلال تبادل هذه الرسائل أكون أنا هنا في الليل في هذه البلاد التي دمرتها الحرب، بينما هي في تلك القارة البعيدة تكون في نهار.

ليلة البارحة كتبت لها متسائلاً عن البطء الدائم لرسائلها، ومدى آثاره السلبية على مزاجي.

فكتبتْ لي معترفةً بسرّها، اكتشفتُ أنها تعمل في عيادة، وعند خروج مريض وقبل دخول الآخر تكتبُ لي رسالة حبٍّ بهيئة قصيدة نثر.

أمّا عندما تكون في الليل، المقابل للنهار عندي.. فليس لديها وقت لكتابة الرسائل العاطفية لي، بسبب مشاغل المشاوير وهوايات التسوق والتزحلق على الأرصفة.

استنتجتُ أنها تحبّني من بين المرضى، تتسلّى معي لتحمي قلبها من وحشة المرض المتزاحم على بابها كل صباح.

لهذا وخلال ساعةٍ شربتُ زجاجةَ نبيذٍ وذهبتُ إليها، أنا عندما أشرب أصير من (أصحاب الخطوة).

عبرتُ من ليلي هنا إلى نهارها في تلك البلاد ودخلتُ عيادتها بسرعة.

عندما شاهدتني وأنا ابتسم لها ببلاهة سألتني:

- من ماذا تعاني؟.

- أعاني منكِ..

- من أنت؟... (تلعثمتْ وهي تشهق).

- أنا ذلك الذي تحبينه عبر (الفيس) بائع القصص..

كنت أظنُّ أنها سوف تعانقني، وأنني سأتضايق كثيراً من قبلاتها التي حلمتُ بها طويلاً، لكن.. لم أتعرّض لأيّ قبلة.

- أرجوك اخرج من هنا قبل أن يشاهدك أحدٌ من المعارف..

- كنت أظن أنك تحبّيني.. كما تكتبين في رسائلك..

- نعم.. أنا أحبك.. لكن كرسائل..

- كرسائل!!..

- نعم كرسائل.. هيا، اخرج..

تمتمتُ في سّري: (اللعنة على إله الرسائل لدى اليونانيين القدماء). لسنةٍ وأنا أتوهم أنها شرابُ السعال المناسب لقلبي.

لم أخرج من الباب، إنما أسرعتُ لأقفز من النافذة بحنق فهويت للأسفل. عندئذٍ، سقطتُ في (العنبر رقم ٦).

اقتربتُ من (تشيخوف) وجلستُ إلى طاولته.

تلك الفتاة التعيسة في قصة (الآنسة والكبش) أعدّتْ لنا شاياً شاحباً فيه كلّ قلق هذا العنبر.

شربنا أنا و(تشيخوف) الشاي وتبادلنا الصمت والخيبة والنظارات، لكن الرؤية لم تختلف، ظلّت ذاتها.

بيننا.. على الطاولة، كان صرصار كافكا يمشي بلا مبالاة.. يمشي ببطءٍ.. ببطءٍ شديد.. ببطءٍ موحش.

وكأنّه رسالةٌ أخيرةٌ من نهارها إلى ليلي.

الدبّة

لساعاتٍ وهي تمشي بمللٍ بجسدها الضخم في الغابة، ولأوّل مرةٍ في حياتها تقطع كلّ هذه المسافة، حتى وصلتْ إلى طريقٍ إسفلتية لم ترتح روحها لها.. فنَوتْ الرجوع.

إلا أنها لمحتْ ـ مصادفةً ـ دبّاً صغيراً في منتصف الطريق، وبغريزة أمومتها صرختْ له، ثمّ أسرعتْ إليه غير مكترثةٍ للسيارات المسرعة حيث التقطته على عجل، وراحتْ تجري في الغابة حتى كهفها.

في الكهف لعقتْ ببطءٍ الدبّ الصغير لتنظّفه من الأوساخ، ثم ضمّته إلى صدرها لتمنحه قليلاً من الحليب والحنان.. تأملّته كثيراً وهي تتبادل معه الابتسامات الدافئة.

تعلّقتْ به كثيراً، لهذا ظلّتْ تعتني به لسنوات، مع أنها أنجبتْ عدّة دببةٍ صغيرة.. لكنّ قلبها بقي معلقاً بهذا اللقيط، فهو لا يكبر ولا يرحل فيما بعد عنها إلى كهفٍ خاص به.

لكنها لم تنتبه لأطرافه التي بدأت تهترئ مؤخّراً.

لسنواتٍ وهي تلهو معه بفرح، رغم أنّ ذلك الطفلَ الذي كان قد اشتراه من حانوت الدمى، لم يلهُ به إلا أياماً قليلة، قبل أن يملّ منه.. فيقذفه بلامبالاة من شباك السيارة .

رجلٌ حزين

مضتْ ستُّ سنوات، ووردته لا تزال في يده، وهو على مقعدٍ بجانب شجرةٍ على حافةِ طريقها.

الآن رمته على عجلٍ بابتسامتها الأنثوية الساحرة، كعادتها في كل مرةٍ تشاهده.. ثم تابعتْ سيرها بشيءٍ من اللامبالاة.

وللمرّةِ الألف حاول أن يستغلّ مرورها لينحني إليها، ويخطف من شفتيها الزهريتين قبلةً رقيقة، تنتشل روحه من عتمة ستّ سنواتٍ أمضاها بحزن، وهو لا يحلم بأيّ شيء، سوى أن يمتلك القدرة على الانحناء أثناء مرورها به، لأجل تقبيلها.

لكنّه، وللمّرةِ الألف.. فشل في أن ينحني، لتضيف ابتسامتها الأخيرةُ لأحزانه حزناً آخر، والقبلة التي في خياله تُشنق مجدداً.

حتى هي، رغم أنها تمرّ به كثيراً، وأحياناً كلَّ بضع ساعات وتنظر إليه.

لكنها لم تنتبه ولا مرة إلى أنّ هذا الرجل مغرمٌ بها حتى الثمالة، وأن ابتساماتها العذبة هي ماء روحه.

ولم تنتبه أبداً إلى أنّ ملامحه تزداد حزناً، مروراً بعد آخر، وكأنّ مرورها به مجرد روتين.

لهذا، في الأشهر الأخيرة ثمّة شحوبٌ هادئ، له اللون الداكن للانتظار المرير، راح يتسلل لملامحه، على إيقاع تفسّخ روحه ببطءٍ قاسٍ أدمى قلبه.

ورغم كلّ هذا الزمن الطويل، الوردة التي في يده لم تذبل بعد.

هذا الرجل.. الذي، ومنذ ستّ سنوات، كانت هذه الرسامة الشابة قد رسمته في لوحةٍ تشكيلية، ثم علّقتها أمام باب غرفتها.

نهايةُ لوحة

الأسبوع الماضي انتهتْ آخرُ قصّة حبٍّ عشتها بخيبةٍ مريرةٍ مع تلك الفتاة الجميلة.. تماماً، مثلما انتهتْ كلُّ قصص الحب التي عشتها في حياتي، صرتُ متأكداً أنني ناجحٌ فقط في تدخين السجائر.. لم أمتْ بسبب هذه الخيبة العاطفية الجديدة، لكن المسافة بين غرفتي الضيقة والحانة المتواضعة، كنت أقطعها بـ ثلاث سجائر، صارتْ بعد هذه الخيبة تستغرق مني نصف علبة سجائر.

كنت أمشي مسرعاً في الشوارع التي بلّلها المطر، أهرب من طيف تلك الفتاة وهو يطاردني، تكاد السيارات أن ترتطم بي ولا ترتطم بطيفها فتخلّصني منه.

فجأةً توقفتُ صدفةً أمام متجرٍ للوحات، خلف واجهته الزجاجية ثمّة لوحةٌ كبيرةٌ لـ أنثىً جميلةٍ عاريةٍ مستلقيةٍ على سريرٍ وحولها ألفُ وردةٍ ووردة كما خمّنت.

ابتسمتْ لي.. مشيتُ أمتاراً قليلة فنادتني باسمي من داخل لوحتها.

رجعتُ إليها، هذه الأنثى ليست بغريبةٍ عن ذاكرتي، شعرتُ أنني قد شاهدتها في طفولتي.. لكن أين وكيف؟. لم أتذكر.

(أنا أحبّكَ) همستْ لي فشعرتُ بالطمأنينة، دخلتُ المتجر واشتريتُ هذه اللوحة.

بعد أن علّقتها في غرفتي فوق السرير، جلستُ وتأملتها لزجاجة نبيذٍ كاملة.

رميتُ بجسدي المخمور على سريري، بعد دقيقتين.. سقطتْ هذه الأنثى مع وردتين عن لوحتها فوق سريري، جانبي.

لم أصدق.. شهقتُ وهي تقبلني، التقطتْ كفي ووضعته على نهدها، ثمّة موسيقى حلوةٌ فتحتْ باب خزانتي وخرجتْ منها، لتسرع إلينا وتغطينا، ونحن نتورط في عناقٍ دافئٍ وقبلاتٍ طويلةٍ وشهواتٍ ملونة.

عندما استيقظتُ ظهرَ اليوم التالي، كانت هذه الأنثى قد رجعتْ إلى لوحتها، التقطتُ الوردتين وقفتُ على سريري لأرجعهما إلى اللوحة ونحن نتبادل الابتسامات.

وهكذا مرّتْ عدّة ليالٍ، أستيقظ في وقتٍ متأخر، أمشي لساعات مع سجائري في الشوارع، ثم أهرب من المطر إلى تلك الحانة، وبعد أن أشرب كثيراً أرجع مخموراً إلى غرفتي، لأرمي بجسدي على سريري، وكما في كل ليلة.. تسقط هذه الأنثى من لوحتها على سريري، تخرج الموسيقى من الخزانة، لنظلَّ حتى ساعات الصباح الأولى في شغبٍ لذيذ، وكلما استيقظتُ أرجع الوردتين إلى اللوحة.

فعلاً.. بناتُ اللوحات أجمل بكثيرٍ من بنات الحياة.

مساء البارحة، وفي أحد الشوارع تحت المطر اكتشفتُ أن سجائري نفدت.

ثمّة خوفٌ غامض أصابني. عندئذٍ، وفجأةً.. على إثر هذا الخوف الغامض، كلُّ الجميلات اللواتي عشتُ معهنّ قصص حبٍّ في حياتي نهضن معاً داخل ذاكرتي ، لم أحتمل ضجيج لعناتهنّ عليّ.. اشتريتُ بسرعة علبة سجائر وهربتُ إلى الحانة حيث شربتُ كثيراً.

كأساً بعد كأس، كنّ يدخلن ـ عشيقاتي السابقات ـ الحانة، واحدةً تلوَ الأخرى ليجلسن حولي على طاولاتٍ قريبة، ينظرن إليّ بحنق.. كيف تعرّفن على بعضهنّ وكلّ واحدة منهنّ كانت من حارةٍ و من مدينةٍ مختلفة!. من أعمارٍ متباعدةٍ وأديانٍ متعددة!!.

كلُّ شيءٍ في الكون كان يترنّح أمامي وأنا أهرب إلى غرفتي، وصلتُ فرميتُ جسدي بتعبٍ على السرير، وانتظرتُ حتى تسقط عليّ أنثى اللوحة.

طال انتظاري ولم تسقط، كانت هذه الليلةَ الأولى التي لا تسقط فيها.

استغربتُ، خمّنتُ في سري: (قد تكون هذه الليلة هي عطلتها الأسبوعية عن السقوط).

مرَّ الليل بشكلٍ غريب، لم أكن نائماً، لكنني أيضاً لم أكن مستيقظاً، سكونٌ غريبٌ لليلةٍ غريبة.

في الصباح دخل مهند غرفتي، حاول أن يوقظني.. حاولتُ أن أستجيب له لكنني فشلت.

تأملني ثم ابتعد بخوفٍ وبدأ يتصل بأصدقائي وأقاربي، أمرهُ غريبٌ مهند. لم أفهم شيئاً.. نظرتُ إليها، عندئذٍ شاهدتُ هذه الأنثى تخرج من اللوحة، وبهدوءٍ.. بدأتْ تصعد إلى الأعلى.

عندما تتسلّلُ السينما إلى خارج صالتها

لأجل هذا الفيلمِ ارتدَتْ أجمل فستانٍ لديها وجاءتْ.

لساعةٍ ونصف وروحها مخطوفةٌ من قِبل هذا الفيلم الجميل في عتمة الصالة السينمائية.

سحرها الممثل الذي يؤدي دور البطولة على الشاشة الكبيرة، أُغرمتْ بشفتيه المحمرّتين، تمنتْ بحسرة بعد ثلاث قبلاتٍ شهيةٍ بين بطل الفيلم وبطلته لو أنها من سكان هذا الفيلم، همستْ في سرّها:

- يا إلهي، كم هو بارعٌ في التقبيل...

إثرَ إحدى قبلاته لبطلة الفيلم، هي في عتمة الصالة دون أن تنتبه مسحتْ بأصابعها على شفتيها المهجورتين من القبلات، قالت بصمتْ:

- لو أنّ حياتي تشبه هذا الفيلم...

عندما انتهى الفيلم شعرَتْ بالحزن، تمنّتْ لو أنَّ مدّةَ عرضه سنةٌ كاملة، أو شهرٌ على الأقل.

كانت وحيدة، تأخرتْ حتى خرجتْ من الصالة، وعلى بابها شهقتْ عندما شاهدتْ نفس الممثل الأنيق في الفيلم أمامها على الرصيف، وجهاً لوجه.. انحنى ثم التقط كفّها ليقبّلها بلطف، همس لها:

- كالعادة... تأخرتِ قليلاً عليّ...

فتح مظلّته حتى لا يبلل المطرُ فستانها، ثمّ دعاها إلى سيارته جانب الرصيف.

دخلتْ سيارته فجلس جوارها وقبّلها في شفتيها قبلةً دافئةً طويلة، ثم صاح منتشياً على السائق:

-خذنا إلى أجمل حانةٍ في هذه المدينة...

بعد نصف ساعةٍ انتبهتْ، فوجدتْ نفسها في عتمة الليل أمام باب بيتها، وقد بلل المطرُ كلَّ ملامحها، وفستانها.

أنا لستُ إنساناً نظيفاً

كلامهُ عنّي بهذا الشكل أزعجني جداً، لدرجةٍ أنني همستُ في سري متعجباً:

- على ما يبدو أن هنالك مصطفىً آخرَ غيري في حياته؟!..

لدقائق وهو يشرح للناس في خطبةٍ عصماءٍ وبإسهاب، صفاتي العظيمة والرائعة، وبصوتٍ عالٍ.. لكن ـ بصراحة ـ ثلاثةُ أرباع هذه الصفات لا أملكها إطلاقاً، وثمّة صفاتٌ منها أكرهها.

رغم أنيّ أعرف نفسي أكثر منه، إلا أنّه كان يتحدَّث عنّي وكأنّني شخصٌ آخر. تحمّلت كلامه غصباً عني، لكنّه عندما صاح بهم:

- لقد كان مصطفى أنظف إنسان بحارتنا و..

ما عدتُ أحتمل، فقدت عقلي بسبب كلامه، عندئذٍ نهضتُ واستدرتُ إليه، لأقول له بحنقٍ أمام كلِّ الناس:

- يا حقير.. المياه مقطوعة عن حارتنا منذ شهر، وأنا من وقتها لم أستحم.. فكيف تجعلني نظيفاً؟!. يا شباب لا تصدّقوه.. إنّه يكذب عليكم..

هو، فقد لسانه القدرة على التكلم من هول الدهشة، وشهق كلّ الناس بذهولٍ عارم.

ثم رجعتُ لأستلقي بهدوءٍ في التابوت وأغلقه على نفسي، فوق الطاولة في ساحة المقبرة.

أنا، الذي كنتُ قد قُتلتُ منذ بضع ساعات برصاصة قنّاصٍ ، عندما كنت أعبر بسرعةٍ ذلك الشارع الخطير، الذي يفصل بين قصّةٍ وقصّة أخرى.

عندما أسأتُ إلى سمعة السعادة الأبديّة في الجنّة

خلال أيامٍ قليلةٍ اعتقلوا الكثيرَ من زملائنا في الجامعة، لأنهم - كما أنا وأنتِ - تظاهروا من أجل الحريّة.

خوفُنا جعلنا نبتعد عن الجامعة حتى تهدأ الأوضاع قليلاً، لهذا قررنا السفر عائدين إلى مدننا بعيداً عن العاصمة.

جمعنا حقائبنا، وفي الكراجات أخذتُ منك بطاقتكِ الشخصية لأقطع تذكرتين، ثمَّ نسيتُها في جيبي، الحافلةُ التي تصل إلى مدينتي بعد أربع ساعات هي نفسها تصل مدينتك بعد ثلاث ساعات.

وكأنّها رحلتنا الأخيرة، طوال الطريق حتى مدينتك ونحن نتبادل نظرات الحزن، بينما يدي تعانق يدك.

عندما وصلتِ الحافلة إلى مدينتك ودون أن أبتعد بعيني عن عينيك ونحن نحضن بعضنا، أخذتُ بطاقتكِ الشخصيّة من جيبي ودسستها بيدك لتنزلي من الحافلة، وتختفي من خلف الزجاج بين المسافرين وأنتِ تبكين بصمت.

تابعتِ الحافلة رحلتها وبعد ساعة وصلتْ مدينتي فتوقفتْ أمام مدخلها حيث يوجد حاجزٌ عسكري.

نزلنا كلنا من الحافلة ليدقق العساكر ببطاقاتنا الشخصية، وعندما اقترب أحدهم منّي التقطتُ بطاقتي من جيبي وناولته إياها، نظر فيها ثمَّ صاح بي مستغرباً: (هل أنت فلانة؟).

همستُ له بخوف: (لا.. أنا حبيبُها).

(أتعبثُ معي يا وغد؟) وجرّني من قميصي إلى خلف ساترٍ ترابيٍّ قريب، ثمَّ أطلق على رأسي النار وقذف ببطاقتك جانب جثّتي، وذهب ليمارس هوايته مع زملائه بسرقة حقائب المسافرين.

بعد أن متُّ بدقائقَ نهضتُ والتقطتُ بطاقتكِ الشخصية عن الأرض ثمَّ صعدتُ إلى السماء، وعندما وصلتها اتجهتُ إلى الجنة، على بابها أعطيتُ بطاقتكِ للملاك الواقف بجانب باب الجنة.

تأمّل البطاقة ثمَّ عبث بأوراقٍ بين يديه، تمتم بذهول: (إنها روحٌ عظيمة.. إنها روحٌ عظيمة).

وفتح لي الباب لأدخل الجنّة، أظنُّ أنني أوّلُ كافرٍ يدخلُ الجنة، صحيحٌ أنني قُتلتُ بسببكِ لكنني أيضاً فزتُ بالجنّة بسببكِ.

أسرعتُ إلى أول حانةٍ صادفتها في الجنّة، وفيها طلبتُ من النادل علبةَ سجائرٍ ذات دخانٍ زهريٍّ اللون وزجاجة نبيذٍ، من ذلك النبيذ الذي بدأت الملائكة بتعتيقه منذ الأيام الأولى للخلق.

حول طاولتي في ذات الحانة ثمّة أناسٌ كثر على طاولات أخرى، تأمّلتهم فعرفتُ بعضهم، عندئذٍ اكتشفتُ أنّ مزاجَ الجنّة هنا في الأعلى يختلف تماماً عن كلام الفقهاء هناك في الأسفل.

جلب النادل السجائر والنبيذ، أشعلتُ واحدة ودخّنتها بمتعة، كان لها نكهة الشوكولا وحولي انتشر دخانها الزهري، شربتُ عدة كؤوس من النبيذ.. وعندما انتشيتُ وضعتُ ساقاً على أخرى، وبدأتُ أشرح للخالدين في الجنة داخل هذه الحانة جسدك جزءاً جزءاً، كما حفظته ذاكرتي من غرفتي الصغيرة في الأحياء القديمة للعاصمة عندما كنتِ تزورينني لنلهو قليلاً.

الخالدون هنا اقتربوا مني مع كراسيهم بحماس، حتى أن الغيتار همس لصاحبه الغجري بنزق في تلك الزاوية: (أرجوك، توقف عن مداعبتي، أريد أن أصغي لكلامه عن جسدها).

تخيّلي، نهدُكِ وحده كلّفني زجاجة نبيذٍ كاملةً من الشرح، شربتُ زجاجةً ثانية ثمَّ ثالثة وبدأتُ بالرابعة، كم تمنّيتُ لو أنك معي هنا لتتذوقي هذا النبيذ.. لا شيء يفوق طعمه لذةً في ذاكرتي سوى طعم شفتيك.

فجأةً صمتٌّ، استغرب الخالدون المتناثرون حولي، دقيقة سكون هبّتْ على هذه الحانة لتتلاشى الغيمة الزهرية من فوق رأسي، عندئذٍ أجهشتُ بالبكاء، بكاءٍ مرير.

كسرتُ الزجاجة الرابعة بأن ضربتها بقسوة على جبيني، فغسل نبيذها ملامحي، ليمتزج بدموعي.

رميتُ بقهرٍ وجهي على سطح الطاولة لأبكي، وأنا أخبط بندمٍ قبضتي على خشب الطاولة، وأشتم نفسي.

الخالدون اقتربوا مني وهم يربّتون على ظهري، لم أستطع أن أخبرهم بأنني مجرّد مندسٍّ في الجنّة. بكيتُ.. فأنا وكما كنتُ سببَ كلّ الآمك في الحياة، سوف أكون أيضاً سبب كلّ آلامك بعد الحياة، بسبب بطاقتي الشخصية التي بقيتْ معكِ، ستذهبين إلى الجحيم بدلاً من الجنة.

هذا ليس ذنبي أيها الخالدون، هذا ليس ذنبي.. فالملائكة لا تدقّق في الوجوه، الملائكة لا تدقق في الوجوه، الملائكة لا تدقق في الوجوه.

قلبٌ ضيّق

كنت أمشي على الأرصفة ذاهباً إلى السوق، فجأةً.. شاهدتُ صدفةً هذه الجميلة تنشر غسيلها بفستانها القصير على شرفتها، وكانت كلما رفعتْ يديها لتعلق قطعة قماش على الحبل ارتفع فستانها أكثر.

شهقتُ وأنا أتوقف بين العابرين على الرصيف لأتأمل جمالها، وأدعو في سرّي أن تكون قطع غسيلها كثيرة، شهقتي الثانية كانت عندما أفلت من يديها قميص نومٍ لها وسقط عن الشرفة ليسقط قلبي معه.

انحنيتُ لألتقط قميص نومها و قلبي الذي سقط جانب قميصها على ذات الرصيف، وانكسر لعدّة قطع وكأنّه مزهرية. رميتُ لها قميصها فرمتني بابتسامةٍ ساحرةٍ على حياء، ثم تابعت المشي وفي جيبي قلبي المكسورُ لعدةِ قطع.

حتماً سوف أعثر في السوق بين الحوانيت الكثيرة على حانوت يقوم بإصلاح القلوب المحطّمة، لا أظنّ أنه سيكلفني الكثير من المال، ولا يحتاج لتغيير.. قطعه تحتاج فقط للّصق.

عندما عثرتُ خلال ضياع نظراتي بين الحوانيت على حانوت كُتب أعلى بابه بالخط العرض (جابر إخوان لإصلاح وترميم وتغيير القلوب). دخلته بسرعة وشرحتُ لصاحبه مشكلة قلبي ثمَّ وضعتُ له قطع قلبي على الطاولة أمامه، تفحّصها بهدوءٍ..

- ارجع بعد ساعة..

- أريد صحن فول..

- تكرم عينك..

قلتُ للفتى النادل في مطعمٍ شعبيٍّ قريب، كان هذا أوّل صحن فولٍ أتناوله في حياتي بدون قلب، لم أنتبه إن كان لذيذاً أو لا.. كنتُ جائعاً فالتهمته بشراهة، ثم شربتُ كأس شايٍ بخاره المتصاعد منه بدا لي وكأنّه راقصة تتمايل بكسل.. دخّنتُ عدّة سجائر ومضيت.

أضعتُ قليلاً من الوقت وأنا أتجول في شوارع السوق، تسلّيتُ بأن راقبت وجوه العابرين بي وأنا أخمن - لأطرد الملل - متى سوف يموتون. هذا سوف يموت بعد شهرين، هذه سوف تموت بعد سنتين، تلك بعد أربعة أيام، ذلك البدين لا أظنّ أنه سوف يموت، لا أعتقد أن السماء قادرة على حمل روحه.

فعليّاً لا أعرف متى سوف يموتون، ولا أعرف إن كانت تخميناتي كلها أو بعضها صحيحاً، وحده الله يعرف متى يموتون، وليس لدي طريقة للتواصل مع الله لأتأكد من صحة تخميناتي.

- لقد أصلحته.. لكن أنصحك بأن تغيّره..

- لماذا؟..

- إنّه صغيرٌ جداً، لا يتّسع لوطنٍ أو حبيبةٍ أو أمٍّ أو..

شرح لي صاحب الحانوت بعد أن رجعتُ إليه وهو يشير لقلبي فوق الطاولة وأنا أرمقه بهدوء.

- ألا يتّسع لـ سيجارة؟..

- يتّسع لـ علبة سجائر كاملة..

- ألا يتّسع لـ زجاجة نبيذ؟..

- يتّسع لزجاجتين ونصف من أي مشروب..

- ألا يتّسع لـ مباراة بكرة القدم من الدوري الإسباني؟..

- يتّسع لكل مباريات مرحلة الذهاب أو الإياب..

- ألا يتّسع لـ صحن ملوخية؟..

- يتّسع لـ طنجرة ملوخية..

- إذاً هذا يكفيني..

مستغرباً مني وبصمت فتح صدري ووضع قلبي مكانه ثمَّ أغلق عليه صدري، سعلتُ قليلاً.. أعطيته أجرته وخرجت.

مشيتُ في الشوارع عائداً إلى غرفتي المهملة والباردة والموحشة، ظللتُ أمشي في الشوارع لسنوات، أتأمّل الجميلات وهنّ ينشرن على شرفاتهنّ غسيلهنّ، دون أنّ يسقط منّي أي شيء.

تحت صورة السيّد الرئيس

دخلنا معاً وجلسنا على طاولةٍ في هذا المقهى، أنا وأنا وأنا..

أنا الأول طلب كأس شاي، أنا الثاني طلب علبة ماء، أنا الثالث طلب منفضة سجائر وأشعل واحدة ليعبّ منها بعمق.. النّادل الغبي ظنّنا واحداً.

البارحة مختار حارتنا أعطاني شهادة (حسن سلوك) أثناء جمعي للكثير من الأوراق الثبوتية للتقدم إلى مسابقة توظيفٍ لدى مؤسسات الدولة.. البطالة خلال هذه السنوات أنهكتْ روحي.

لكنّي استغربتُ كثيراً من مختار حارتنا، أخذتُ الورقة وأنا أبتسم بخبث، حسن سلوك!! كدتُ أنفجر ضاحكاً أمامه وأنا أتذكر عندما كنتُ في الصف الثامن الإعدادي، يوم تسابقنا أنا وفاروق في حصة الجغرافيا بممارسة العادة السرية، بعد أن اتفقنا على أنّ من ينتشي أولاً هو الأكثر رجولة، أين السلوك الحسن في مثل هذه المراهقات الغريبة، يومها حظّنا كان جميلاً، لم ينتبه لنا أستاذ الجغرافيا.. لكن الحقير فاروق آنذاك انتشى قبلي، عليه اللعنة.. يبدو أن ابنة جيرانه في حارته أجمل من ابنة جيراني في حارتي، شتمتُ وقتها في سرّي صورة السيد الرئيس المعلّقة على الجدار فوقنا تماماً، هو السبب بهزيمتي في العادة السرية، ملامحه لخبطتْ لي مزاجي وعكّرتْ خيالي أثناء السباق.. لهذا سبقني فاروق.

فجأةً.. وبعد أكثر من عقدٍ ونصف منذ أن شاهدته آخر مرّة، دخل فاروق إلى هذا المقهى.

شهقتُ.. رغم كل تلك السنوات ملامحه لم تتغير، جلس أمامي وهو

يبتسم بصمتٍ لي، طلب كأس شاي وعلبة ماء ومنفضة سجائر.. يبدو أنه مثلي، منكسرٌ إلى عدة خيبات.

لساعةٍ تأمّلنا بعضنا بحميميّةِ الذكريات الشاحبة القديمة، وجوهه كانت متعبة للغاية كـ وجوهي.

نهضتُ ودفعت للنادل حساب طاولتي وطاولة فاروق، كما كنا في المدرسة أقاسمه نصف سندويشتي.

عندما وصلتُ إلى باب المقهى كان فاروق قد لحق بي، ثمّة تعاسة في صوته وهو يقول لي:

-ـ أعرف أنك ذاهب إلى هناك.. سأذهب معك..

ضحكت وقلت:

- لكن، هذه المرة سأهزمك يا حقير..

- هههههه أنت سوف تنهزم مجدداً..

- هههههه هيا بنا..

رميتُ ساعدي على كتفيه، ومشينا في الشوارع المبللة بالمطر في هذه المدينة الكئيبة.

مشينا لنرجع معاً في هذا المساء البارد إلى الصف الثامن، الشعبة الرابعة، مدرسة النهضة، حصّة الجغرافيا.. إلى المقعد الأخير، تماماً.. تحت صورة السيد الرئيس.

مجموعةُ قصصٍ كتبها الموت

حدث هذا الشيء الغريب جداً بعد أن جلستُ في هذا المقهى بحوالي الساعة تقريباً.

شربتُ كأس شايٍ وأنا أدخن بنهمٍ سجائري، ثمَّ انحنيتُ على طاولتي لأكتب على الأوراق التي نثرتها أمامي عندما جلست هنا قصّةٌ قصيرةٌ عن الموت.

عندما انتهيتُ منها أشعلت سيجارةً وقرأتها لنفسي على مهل، أعجبتني كثيراً هذه القصة الجديدة، أظنّ أنها أجمل من كلّ القصص التي كتبتها خلال السنوات السابقة، أخذتُ نفساً عميقاً وأنا أسترخي منتشياً على الكرسي.

ثمّة مللٌ استباح روحي إثر تلك النشوة، ملتُ قليلاً نحو النافذة جانب طاولتي لأتأمل من المقهى البشر العابرين في الشارع. شهقتُ، كل الذين شاهدتهم يعبرون أمامي على شباك النافذة كانوا موتى، غريب.. وكأنهم خرجوا للتوّ من قبورهم، جثثٌ تمشي في الشارع، كاد عقلي أن ينفجر من هول المفاجأة، أشحتُ بوجهي عن النافذة لأتأمّل الجالسين على الكراسي بين طاولات هذا المقهى، لم أفهم شيئاً.. ثمّة ما هو غريب يحدث حولي، غموضٌ كثيفٌ صار يتصاعد من سيجارتي بدلاً من الدخان.. حتى الجالسين هنا كانوا على كراسيّهم موتى.

تأففتُ بصمتٍ وأنا أخمّن (يبدو أنّ هذا اليوم يصادف اليوم العالمي للموت).

اقترب مني النادل، طلبتُ منه كأس شايٍ آخر، لم يرد عليّ، نظرتُ فيه وهو ينحني إليّ.. يا إلهي، حتى هو كان ميتاً.. ما قصتهم!. منذ ساعة عندما جلب لي كأس الشاي لم يكن جثّة.

بجثّته وبعد أن انحنى عليّ تحدث معي بلغة غريبة، لم أفهم منها حرفاً.. عبس وابتعد ليرجع بعد ثوانٍ مسرعاً إليّ ومعه رجال آخرون، أظنّ أنه استعان بمن يجيدون ترجمة اللغات لأفهمه.

تحلّقوا حولي، صرتُ في منتصف دائرتهم. تحدّثوا إلى بعضهم بلغتهم الغريبة والفزع ينهمر من ملامحهم. يا إلهي.. هم أيضاً، المترجمون الخمسة كانوا جثثاً خطفها الموت.

أحدهم وبكل حقارة مدّ يده دون أن يستأذنني إلى جيب قميصي ليلتقط هويتي الشخصية، كم هم قليلو أدب الموتى، شعرتُ لوهلة أنهم كلهم عبارة عن مجموعة قصصٍ كتبها الموت ولا أعرف أين ينوي طباعتها.

شتمته لكنه لم يرد عليّ، المترجم الثاني كان أكثرهم قلةً للأدب، هكذا وبدون أي مبرر، مدّ كفه إلى عينيّ ومسح على جفنيّ ليغلقهما. غرقتُ في ظلامٍ دامس.

الأشخاصُ الذين دخّنتهم

الإيقاع الرتيب للمطر المنهمر في الخارج، صمتُ غرفتي الموحشة، تكتكات الساعة على الجدار، التثاؤب الذي لا علاقة للنعاس به، كلّ هذه الأشياء جعلتِ الملل ينهش روحي كوحشٍ جائع.. تسللتُ رغم البرد من غرفتي ومشيتُ طويلاً تحت المطر حتى مقهىً قديمٍ في منتصف السوق.

لا تروق لأذني هذه الأغنيات القديمة التي يضعها بشكلٍ دائم العجوز الأحمق صاحب هذا المقهى، خلال كأسين للشاي تسليتُ بتدخين السجائر، تأمّلتُ منفضة السجائر.. انحنيتُ عليها فانتبهتُ لوجود بقايا أربع سجائر، ابتسمتُ بمللٍ وقررتُ أن أطلق عليها أسماءً بشرية بشكلٍ ارتجاليّ، فأسميتها على التوالي: مهند، عامر، اسماعيل، خالد. ثم ضحكتُ كما لم أضحك منذ أيام.. راقتْ لي كثيراً هذه الفكرة.

خرجتُ من المقهى وأنا أرتدي معطفي ثم أوقفتُ سيارة أجرة وركبتها، لم يخطر ببالي كما هي عادتي عندما أصعد سيارةَ أجرة أن أنظر في وجه السائق، شرحتُ له شارع غرفتي فانطلق بصمتٍ وبعد شارعين توقف على إشارةٍ حمراء.

فجأةً قال لي السائق:

- لماذا قتلتني؟..

لثانيةٍ شلّ كلَّ أطرافي كلامُه، التفتُّ إليه فانتبهت للدماء التي كان ينزفها، شعرتُ بخوفٍ عظيم، صرختُ:

- من أنتَ؟..

- أنا مهند..

أجابني بحزن ففتحت مسرعاً باب السيارة وابتعدتُ هارباً عنها، ركضتُ عدّة شوارع إلى أن كادت أنفاسي تنقطعُ تحت المطر، توقّفتُ أمام عربةٍ لبيع المشروبات الساخنة فاتّكأتُ عليها، قلتُ لصاحبها وأنا أنظر إلى خلفي خوفاً من أن يكون مهند يطاردني:

- أعطني زجاجة ماء..

- تفضل..

نظرتُ إلى اليد التي امتدّتْ نحوي وإذ بها تحمل زجاجة دم، شهقتُ وأنا أتراجع إلى الخلف برعبٍ وأصيح بوجه صاحب العربة:

- من أنت؟..

- أنا عامر.. لماذا قتلتني؟..

همسَ بوحشةٍ فأسرعتُ بالهرب من أمامه، ظللتُ أركض كمجنونٍ تحت مطر الليل حتى وصلتُ البناء الذي أسكن في أحد طوابقه.

في مدخل البناء كان هنالك شابٌّ يدير لي ظهره، لا أعرف لماذا شعرتُ بالرّيبة، مشيتُ بهدوء حتى أصل إلى السلم وعندما صرتُ بمحاذاته انتبهتُ إلى أنّ قميصهُ مبللٌّ بالدماء، تمتم لي بيأس:

- أنا اسماعيل.. لماذا قتلتني؟..

يا إلهي، ما قصة أولئك المطعونين بسكاكينَ حادةٍ هذه الليلة معي، كاد عقلي أن ينفجر، قفزتُ على السلالم حتى وصلتُ غرفتي فدخلتها ثم أغلقتُ الباب جيّداً.

تنفّستُ الصُعَداء.. شعرتُ بعطشٍ كبير، فتحت البرّاد لأخذِ زجاجة ماءٍ فسقطتُ أرضاً، ثمّة شابٌّ ينزف بغزارة كان جالساً داخل البراد، قال لي بصوتٍ خافتٍ وهو يُحتضَر:

- لماذا قتلتني؟.. أنا خالد..

حبوت كطفلٍ مشلولٍ إلى سريري وأنا أبكي بقهر، تسلقته ورميتُ عليه بتعبٍ جسدي، صرختُ كثيراً وبألم، لم أبكِ في حياتي كما بكيتُ الآن على سريري، ثمّ غفوت.

انتبهتُ بعد مدّةٍ لم أستطع تقديرَها إلى رنين هاتفي الجوال على الطاولة جانب السرير، استيقظتُ والتقطتُ بوهنٍ هاتفي، قال لي يحيى:

- أين أنت؟.. لماذا تأخرتَ، نحن ننتظرك منذ بداية السهرة.. مهند وعامر واسماعيل وخالد عندي مثلما اتفقت معك ومعهم من يومين، أن تجتمعوا هذه السهرة عندي لأصالحكم مع بعضكم ونشرب نخب الصلح.

تذكرت، كان هذا الموعد قد غاب عن بالي.

- دقائق وأكون عندك.. حقكم عليّ، لقد نسيت..

- أكيد أنك انشغلت بكتابة قصة من قصصك الفاشلة..

- تضرب بـ موديلك يحيى.. منذ قليل كانت قصّة مريعة تكتبني.. حضّروا الشراب أنا قادم..

أغلقتُ الهاتف ونهضتُ عن سريري، وأنا أزفر مرتاحاً لرحيل ذلك الكابوس البشع الذي داهمني بكل بشاعةٍ على سريري، تمطّيتُ قليلاً.. هذا الارتياح جعلني أشتاق لأن أدخن بعمقٍ سيجارة. التقطتُّ واحدةً وكدتُ أن أشعلها.. لكن، لا أعرف لماذا رمقتها وهي بين أصابعي طويلاً، خفتُ أن يكون لها اسمٌ بشري.

متشرّد

منـذ بداية هـذا الشتاء، وكلّما مرَّ هـذا المتـشرد بثيابه الرثة من أمام متجر الألبسـة النسـائية الفاخـرة، ينظر إلى واجهتـه.. فيشاهدها واقفةً ـ بكلّ جمالها ـ خلف الزجاج، بفستانٍ قصير، وهـي تفتح ذراعيها تنـوي أن تعانقه بحـب.

رغم هـذا، ولـ مساءاتٍ عديدة ظلّ يكذّب في سرّه ـ كلما مرَّ من هنّا ـ تلك الرغبة العميقة في عينيها لمعانقته.

لكن.. هذا المساء، وهو يترنح مخموراً مرَّ على الرصيف المقابل لها، نظر إليها، صدّق للمرة الأولى رغبة عينيها، عندئذٍ ركض بسرعة حتى يعانقها وهو يفتح ذراعيه.

فجأةً.. ارتطمتْ حياته كلُّها بالزجاج ارتطاماً قاسياً، ثم سقطتْ على الرصيف بكل سنواتها كخرقةٍ بالية، لتضيع بين أرجل العابرين.

زجاجة عطر .. وكائنٌ حقير

كائنٌ بشريٌّ حقيرُ الصفات والملامح أيضاً، دخل فجأةً إلى غرفتي وراح يعبث بها دون استئذان لساعات عدة مثل أيّ وضيع.

بعد أن ذهب أسرعتُ بحنقٍ إلى رفّ المغسلة لألتقط زجاجة العطر الخاصة بي، التي رشّ منها على وجهه قبل أن ينصرف، ثم رميتها في سلة المهملات انتقاماً منه.

عندئذٍ، صرختْ بي الزجاجة من داخل السلة متعجّبةً:

- كان عليك أن ترميه هو في هذه السلّة لا أنا!..

معها حقٌّ كلامها صحيح، أرجعتُها إلى الرفّ ثم خرجتُ من غرفتي.

رحتُ أشمّ الهواء من حولي وأمشي بهدوءٍ شارعاً شارعاً.

العابرون من حولي استغربوا جداً، لم يفهموا أنني كنت أتتبع رائحة عطري، لألقي القبض على كائنٍ حقير.

فراشة

بعد أن سحرته، أخذته هذه الفراشة دون أن ينتبه إلى شمعتها، هناك حيث احترقا معاً ببطءٍ أثناء دورانهما الراقصِ حول شعلة النار.

لم يكن الموت احتراقاً قدره.

لكنّ الفراشة التي أغوته، قادته معصوب القلب إلى قدرها هي.

الطفلةُ في هذا المساء الشتوي البارد

بعد أن سقطتْ تحت المطر عدّة مراتٍ على الرصيف.

الطفلة ذات الأعوام الأربعة دخلتْ إلى الصيدلية بوجهها الشاحب، وهي تغطي جسدها الصغير بغطاءٍ رثّ لتترك على بلاط الصيدلية خلفها آثاراً من طين.

عندما شاهدها الصيدليُّ عرفها، فهي تسكن مع أمها ووالدها في قبوٍ مجاورٍ لصيدليته، بعد أن نزحوا من قريتهم البعيدة بسبب الحرب منذ أشهر.

شهق وقد استغرب من والديها كيف يرسلونها إلى الصيدلية حافيةً تحت المطر، سألها بغضب:

- أين والدك؟..

أجابته متلعثمة:

- خرج في الصباح ليجلب طعاماً و زجاجة مازوتٍ لكنه لم يرجع حتى الآن..

- وأين أمك؟.

- أمي مستلقية في الغرفة..

تنهّد الصيدلي، عندئذٍ أخرجتْ الطفلة كفّها من أسفل الغطاء، وفوق زجاج طاولته سقطتْ منها قطع معدنية.

أجهشتْ فجأةً بالبكاء وهي تقول له:

- أعطني دواءً بسبع ليراتٍ ونصف، يعيد أمي إلى الحياة..

الذئب وليلى

بعد أن جلس على هذا الكرسيّ الشبيه بسريرٍ ضيقٍ وفتح فمه بخجل، انحنى عليه الطبيب و تأمّل التسوس الداكن الذي ينخر معظم أسنانه، زفر ثم سأله:

- كم ليلى تأكل في اليوم؟..

- نصف واحدة.. فقط..

أجابه الذئب بحزنٍ وهو يتألّم بصمت.

لم يصدقه الطبيب، فبحسب خبرته لا يمكن لنصف ليلى يوميّاً أن تسبب كلَّ هذا التسوس.

مع هذا، شرع بمعالجة أسنان هذا الذئب بسرعة، لأنّ غرفة الانتظار في عيادته السنيّة، كانت مليئةً بالذئاب الذين يضعون أكفهم على خدودهم، ويتألّمون بصمت.

شمعة

اشتاق لرؤية وجهها، فرفع بيده الشمعة ليتأمل صورتها التي علقتها في إطار جميل على جدار غرفته.

لم يشاهد وجهها على زجاج صورتها، إنما شاهد شمعة أخرى.

عندئذٍ استنتج أن الشمعة التي في يده، هي انعكاسٌ وهميٌّ للشمعة الحقيقية الموجودة في صورة حبيبته.

برميل

في صباح كلّ يومٍ كانت هذه الأم، وبسبب خوفها الشديد على طفلها، وقبل أن تذهب إلى عملها تضعه في برميلٍ صغير مع قليل من الشوكولا ثمَّ تغلقه عليه بإحكام، ليظلّ قابعاً في عتمته ساعاتٍ طويلة، إلى أن ترجع من عملها فتخرجه.

لكن.. الآن، وبعد أن رجعتْ من عملها فتحتْ غطاء برميلها، ليتنشر دخان كثيف أمام عينيها، لوّحتْ بكفها وهي تسعل وتمعن نظرها.

شهقتْ، لم تعثر على طفلها أبداً.

إنما عثرتْ في قاع البرميل على شتيمة بيدها سيجارة.

فقراء

اشتهى هذا الطفل أن يتناول قطعة حلوى، من تلك التي يراها خلف زجاج الحانوت أثناء ذهابه ورجوعه من المدرسة.

عندئذٍ، انتهز فرصة غياب والديه عن البيت، لينزل عن رف الخزانة تلك الحصالة النقدية.

جلب سكيناً حاداً، ثمَّ - وبشغبٍ طفولي - أدخل رأسها بفم الحصالة وراح يعبث بها على أمل أن تسقط منها قطعة نقدية تكفي لشراء قطعة حلوى واحدة.

مرّت بضع دقائق، فجأةً.. ومن فم الحصالة، انهمرتْ دموع والديه .

وأخيراً

انحنى إليها كما ينحني أميرٌ رقيق القلب إلى وردة، وقبّلها بلطفٍ على شفتيها.

لطالما تمنّتْ في أعماقها مثلَ هذه القبلة منذ أن تزوّجا من سنوات.

بهدوءٍ وكأنها ريشةُ رسام، سبابّته داعبتْ أنفها ثم خدّها، ليالٍ كثيرة وهي تحلم بمثل هذا الحنان.

قبّلها ثانية وهو يستنشق عطرها بحب.. لسنواتٍ انتظرتْ قبلته وما يئستْ.

ولأوّل مرّةٍ اقترب من أذنها، تنهّد وهمس بتعب:

- أحبّكِ..

وأخيراً نطقها بعد زمنٍ طويل مرّ بثقلٍ على روحها ـ كما يمرّ قطارٌ على عصفورة ـ وهي تتخيل هذه الكلمة، وتنتظرها بفارغ الصبر.

رغم كلّ هذا، في هذه الدقائق.. لم تأبه له مطلقاً.

لأنها منذ ساعةٍ ونصف مجرّد جثّة.

مجنون

عندما مرّتْ جانبه في منتصف الغابة، كالعادة.. جمالها أيقظ في نقائه جوعاً لا يحتمل.

ظلّ لدقائقَ يتأمل أنوثة جسدها بحبٍّ إلى أن غابتْ عنه دون أن تنتبه لاضطراب مائه، كما في كل مرور لها به.

وكمجنونٍ همّ باللحاق بها وهو ينوي أن يغرقها في أعماقه، متجاهلاً كلّ نصائح القوارب.

عندئذٍ، ارتطم رأسه بقسوةٍ بضفّته.

وكما في كلّ مرة، سقط هذا النهر في مجراه الأبديّ مجدداً .

خريطة الكنز

أنثى قبل منتصف الليل وفي منتصف رغباتها، بياض جسدها يجبرها على رسم خريطة.

في آخر الخريطة ترسم سريرها وثمّة ضوءٌ جميلٌ عليه.

تطويها وتسرع إلى غرفة الجلوس حيث الرجل على الأريكة يستمع لنشرة الأخبار، تصفع خريطتها بوجهه بلؤمٍ ثم تهرب إلى غرفتها.

بجانب سريرها تخلع عن جسدها ثيابها، ترتدي الانتظارَ مع قليلٍ من العطر وتستلقي عليه مع خيالاتها الوردية.

هو.. انتبه لبقع الزيت على بنطاله فانحنى على الخريطة والتقطها ببلاهة، ليلفّها حول سندويشة للزيت والزعتر كان يلتهمها.

أنثى بعد منتصف الليل ومنتصف رغباتها بكثير، تبدأ برسم خريطةٍ ثانيةٍ لسريرها.

لكن بدلاً من الضوء، ترسم فوق سريرها طبقاً تفوح منه رائحة طبخة (الملوخية).

أزمةٌ عامة

أرسل لها رسالة، لكنّ الأيام مرّتْ دون أن تصله أيّ رسالةٍ منها، فجمع سجائره وسافر إليها.

التقيا في الحديقة وجلسا على مقعدٍ بين شجرتين، وقبل أن يتكلّما بأيّ شيءٍ اقترب منها ساعي البريد وناولها رسالته تلك.

شهقتْ بفرحٍ ثم انشغلتْ بالرسالة لتنساه وكأنه ليس جانبها.

بعد دقائق نهضتْ عن المقعد وهي لا تزال تتأمل صفحات الرسالة بنشوة، لتمشي إلى بيتها وهي تتعثر بالمارة، دون حتى أن تودعه.

عندئذٍ، ذهب إلى دائرة البريد حيث اشترى طابعاً، وبنزق بلّله بلعابه ثم صفع به جبينه ليلصقه عليه بعد أن كتب اسمها وعنوانها، ثم رمى بنفسه في صندوق الرسائل.

في صندوق الرسائل لمح رغم العتمة بعض الأصدقاء القدماء.

لا أحد منهم تحدث مع أحد، ظلّوا طوال الليل يدخّنون بصمتٍ مع بعضهم، وهم ينتظرون الصباحَ وساعي البريد.

انتقامُ مرآة

لم تأبه أبداً للتوسلات الرقيقة لخصلات شعرها الجميل والمنسدل على كتفيها كأغصانٍ طرية، إنما ـ وأمام المرآة ـ التقطت المقصّ وراحتْ تقصّه بلا مبالاةٍ وفق موضةٍ تخيلتها ذات سذاجة.

عندما انتهتْ بعد دقائق ثمّة شيءٌ لا يصدّق قد حدث.

فجأةً اختفى وجهها من المرآة، بحثتْ ـ مندهشةً ـ عنه طويلاً على الزجاج، لكن لم تعثر على أيّ شيءٍ من ملامحها أو بقايا طيفٍ لها.

عندئذٍ انحنتْ ـ مرتبكة الروح ـ بكثيرٍ من الذهول على البلاط لتلملم شعرها المقصوص، وتمسح عنه دموع المرآة.

لا شيء إلّا القصص

لدقائقَ وهو يتأمّل بصمتٍ أوراقه المتناثرة على طاولته.

عبَّ هذا الكاتب بعمقٍ من سيجارته، ثمَّ ارتشفَ ما تبقّى من نبيذٍ في كأسه.

تمتم بهدوء:

- عفواً.. لست أنتَ من خلقني.. القصص التي ألّفتها هي التي خلقتني..

ابتسم منتشياً وهو يزفر دخانه ببطءٍ في فضاء غرفته الضيقة والفوضويّة.

فجأةً، صوتٌ غامضٌ تسلل إلى غرفته من جهةٍ غامضة، قال له:

- عفواً.. وأنا أيضاً.. قصصكم التي ألّفتموها عني، هي التي خلقتني..

أجملُ موسيقى في العالم

هذا المساء زارها برفقة الأصدقاء والصديقات، حيث جلسوا في غرفتها الجميلة لساعات.

هي كانت وبفستانها الطويل والضيق تدخل وتخرج كثيراً، لجلب الكؤوس والأطباق و..

وحده سمع تلك الموسيقى الخافتة التي أنعشتْ روحه.

كانت عندما تمشي في الذهاب والإياب يصدر عنها حفيفٌ رقيقٌ ناتجٌ عن احتكاك فستانها بجسدها.

لهذا صار كلما همّت بالنهوض يفرد أذنيه كشراعين ليستمتع ـ سراً ـ بموسيقى فستانها.

رغم هذه المتعة الروحية تحسّر في سرّه، تمنّى لو أنه قد جلب معه آلة التسجيل، ليسجل هذه الموسيقى، ليس من أجله.. وإنما ليقنع صديقه الأبله في غرفتهما بالسكن الجامعيّ، بأن موسيقى بيتهوفن ليست هي الموسيقى الأجمل في العالم.

فشل

تقدّم «طابع بريد» إلى امتحانات الشهادة الثانوية، وهو يحلم بأن يتابع دراسته في كلية الحب، ليتوظف بعد أن يتخرج منها على ظروف رسائل العشاق.

انتهت الامتحانات وبعد أسابيعَ قليلة ظهرت النتائج، وكان مجموع علاماته منخفضاً جداً.

عندئذٍ وبغصةٍ في الحلق، سجل في معهد (وثيقة غير محكوم).

رسائل من صور

لأشهرٍ وهي تنتظر رجوعه كما وعدها قبل أن يسافر.

تعبتْ روحها من هذا الانتظار المرير، ولأنها تعرف حبيبها جيداً خطرتْ في بالها فكرةٌ غريبة.

خلعتْ قميصها على عجل، لتلتقط لنهدها الناعم صورةً فوتوغرافيةً ملونةً بآلة التصوير، ثم وضعتْ هذه الصورة في ظرفٍ للرسائل كتبت عليه عنوان حبيبها، وفي الصباح أرسلتْ الظرف بالبريد.

بعد أسبوعين طرق ساعي البريد بابها ثم ناولها رسالة من حبيبها، فتحتْ الظرف بسرعة لتعثر داخله على صورة فوتوغرافية أيضاً، فأخرجتها وراحتْ تتأمل لدقائق في هذه الصورة هذا الإبريق الموضوع فوق نار الغاز، وثمّة بخارٌ كثيفٌ يتصاعد منه.

رائحةُ القمر

من حمّالة صدرها الزهرية فاحتْ في أرجاء غرفته الصغيرة رائحة القمر، هكذا أحسّ وهو يستنشقها بمتعة.

أما هي وبكلّ شغبٍ تذمّرتْ طويلاً، لكنه رفض إرجاعها لها، إنما - وبخبث - خبّأها في خزانته بعد أن وعدها بأنه سيحتفظ بها إلى الأبد، كذكرى من أنوثتها تسلّيه في أيام غيابها عنه.

زفرت بحنق، وسرعان ما ابتسمت.

ارتديا ثيابهما وخرجا ليمشيا بين الأزقة العتيقة، حتى وصلا إلى المقهى المفضّل لـ قصّة حبهما.

في المقهى سهواً سقطتْ من يدها الكأس عندما رفعتها إلى شفتيها، ليبلل الماء كل قميصها.

عندئذٍ، وأمام أعين كلٍّ من كان يراقبها خلسةً في المقهى، فاحتْ رائحة القمر ثانيةً.

تحرُّش

تلك السمراء الجميلة ذات الثياب الضيقة، كانت تمشي على الرصيف بغنجٍ وهي تمضغ قطعة لبّانٍ بكثير من الدلال.

ثمّة مراهقٌ لم تحتمل أعصابه تنورتها القصيرة، فاقترب من خلفها وقرصها من زندها.

استدارتْ إليه وصفعته بحنقٍ وهي تبصق على ابتسامته البلهاء.

ثم جرّته من ياقته أمام كل الناس وكأنه كلبٌ إلى المخفر، لتسجل ضده شكوى لدى شرطة الآداب.

في المخفر- وخلال ثلاث ساعات- نسيتْ تماماً ذلك المراهق، فعناصر الشرطة في غرفة التحقيق الضيقة ولثلاث ساعات، أنهكوها قرصاً.

انتحارٌ جماعيّ

في ذات الثانية التي صدمتْ تلك السيارة المسرعة هذه الأم، لترميها مع أكياس الخضار والخبز وحقيبتها البالية، فتسقط بعيداً على الإسفلت جثةً هامدةً مضرّجةً بالدماء.

هناك.. في مطبخ منزلها الصغير، عن كل الرفوف، الصحون والكؤوس والفناجين والأواني الزجاجية الملونة، جميعها رمتْ بنفسها لتتحطم ـ بدويٍّ هائل ـ على البلاط.

العادةُ السريةُ للأفلام

هي العادة السرية لروحه، سنواتٌ عديدةٌ وهو يطارد الأفلام بين الصالات السينمائيّة ليشاهدها وحيداً وبمتعة.

منذ بضعة أسابيع أحب فتاةً جميلة، وكان يرتبك كثيراً كلما جلس إلى جوارها في مقهىً أو حديقة.

هذا المساء دعاها لحضور فيلم.

تأنّقتْ كثيراً ثم ذهبتْ معه إلى تلك الصالة السينمائية، حيث جلسا في الصف الأخير.

أُطفئت الأنوار وبدأ الفيلم.

هو فكّر كثيراً وهي كانت تنتظره بصمتٍ وقلبها يحترق ببطء.

انحنى إليها في العتمة وقبّلها بلطفٍ وخوف، عندئذٍ وضعتْ كفّها على كفّه فقبّلها ثانيةً بشجاعة.

وهكذا انخرطا في قبلاتٍ طويلة غير مهتمّين لمشاهدة الفيلم.

هناك، أمامهما تماماً على الشاشة الكبيرة، الفيلم الذي كان يعرض ظلّ لساعة ونصف وهو يشاهدهما بمتعة.

الإله

لعدّة أسابيع وهو لا يفارق هذه الصخرة، أمضى ليالٍ كثيرةً بلا نومٍ أو طعامٍ وهو ينحت فيها ناوياً في سرّه أن يحوّلها إلى تمثال إلهٍ تخيّله ذات خوفٍ غامض.

هذا النحات وبإصرار ظلّ ينحت وينحت و ينحت.

عندما انتهى رمى بالمطرقة والإزميل جانباً، ثم تأمّل بذهولٍ تمثال هذا الإله وهو يشهق.

انحنى بتعبٍ وسجد بخشوعٍ للتمثال، كمجنون انتظر هذه اللحظة زمناً طويلاً، وراح يهذي ويردّد:

- أرجوك أنقذني.. أرجوك أنقذني..

التمثال الحجريّ همسّ لنفسه متعجّباً:

- كيف أنقذه وهو الذي خلقني؟!.

في المسرحية التاسعة

لطالما حلم منذ أن تورّط في المسرح بمثل هذا التصفيق الذي يجعل روح أيٍّ ممثلٍ في العالم تنتشي على الخشبة.

هذا التصفيق الحارُّ الذي يهبّ عليه الآن كعواصف صوتية من كلّ جهات المسرح في هذه المسرحية. بلغ عمره تسعَ مسرحيّاتٍ أمضاها بحزنٍ كأيّ ممثل كومبارس. فالجمهور كان يصفّق دائماً للبطل والبطلة فقط.

رغم أنّ دوره في هذه المسرحية هو أيضاً دور كومبارس، يظهر مرةً واحدةً في المشهد الأخير ليمثّل فيه أنه يحتضر، يحشرج قليلاً - كما في النص تماماً - يتكوّر جسده على نفسه ألماً، ثم يسقط على الخشبة ميتاً.. مثلما علّمه المخرج.

المشاهدون صفقوا طويلاً له، وهم يقفون إجلالاً لـ تمثيله المؤثر والباهر، تمثيله الذي سحر أرواحهم وأيقظ شهوة خيالهم للكثير من الصور.

هو المستلقي بشكلٍ فوضويٍّ على الخشبة لم يهتم أبداً لكل هذا التصفيق، الذي حلم به طويلاً، انتهى التصفيق وخرج الجمهور، مرت الساعات ببطء، بينما البرد في العتمة على الخشبة يستبيح أطراف جثّته.

إلهٌ جديد

كان منهمكاً بتخييط القماش من خلف آلة الخياطة عندما اقتحم فجأةً دكّانه طفلٌ صغير منكوش الشعر، يرتدي ثياباً مدرسيّةً رثّةً وعلى كتفيه حقيبة قديمة.

توقف الخياط عن الخياطة وهو يبتسم للطفل، ثم سأله:

- ماذا تريد عمو؟..

التقط الطفل أنفاسه ثم قال بغضب:

- أريدك أن تفصّل لي إلهاً جديداً، لقد مللت من الإله الحاليّ، إنه لا يستجيب أبداً لأيّ دعاءٍ أدعوه له..

ضحك الخياط من خيالات هذا الطفل.

- لكن، ليس لديَّ قماشٌ لأفصّل لك إلهاً جديداً..

- لقد جلبت لك القماش..

قال الطفل بثقة وهو ينزع حقيبته القديمة عن كتفيه، عبث بها قليلاً، سرعان ما أخرج منها بقايا قطعٍ قماشيةٍ زرقاءَ لبدلة عملٍ بالية، كان والده العامل قد اشترى غيرها منذ سنوات، ثم ناولها للخياط بكل جدية.

خسائرٌ متتالية

الصبيّة الجميلة ذات الثياب المتواضعة كانت واقفةً أمامَ آلة النسيج في هذا المعمل الكبير ذي الضجة العالية بين عشرات الآلات والعاملات.

ابتسمتْ وهي تتذكر حبيبها لتسهوَ قليلاً، حيث راحتْ تتأمل بحبٍّ ملامح وجهه الذي أشرق في خيالها مع موسيقى رومانسية، يجيد قلبها عزفها كلما تذكرته.. وروحها تبتعد عن ضجيج الآلات لتحلّق كعصفور في أمكنةٍ أخرى.

بعد دقيقتين خسرتْ يدها، بعد يومين خسرتْ حبيبها.

اكتشافٌ علميّ

مرَّتْ عليه سنواتٌ عدّة، وهو جالسٌ كأبله تحت شجرة التفاح يتسلّى بتدخين السجائر، وينتظر بملل سقوط تفاحةٍ أمامه ليكتشف قانون الجاذبية الأرضية .

لكن، هذا الصباح ثمّة أنثى جميلةٌ كانت على غصنٍ عالٍ في الشجرة هوتْ للأسفل، لتسقط على رأسه فتهشمت روحه.

عندئذٍ، اكتشف قانون جاذبيته.

إلهٌ حنون

في زمنٍ ما في مدينةٍ ما ذات مساءٍ خريفيٍّ باردٍ استطاع أحد الخياطين، وبعد الكثير من النبيذ أن يحوك من قماش بذلةِ عملٍ زرقاءَ باليةٍ إلهاً جديداً.

وحدهم العمال من كلّ أصناف البشر، تحمسوا كثيراً لهذا الإله الجديد.

ومن يومها وهذا الإله يتجول كلّ مساءٍ بين المعامل، ليهدي العمال المتعبين كأس شايٍ ثقيلٍ والكثيرَ من السجائر.

لقاء

- نلتقي هذا المساء..

بصوته البارد وعدها على الهاتف، خفق قلبُها.. فانهمكتْ لساعاتٍ بزرع ألوان مكياجها على وجهها، واختارتْ ذلك الفستان الذي يحبه، ثم أعادتْ ترتيب تفاصيلها الأنثوية كما يشتهي خياله.

جاء المساء، صعدتْ مع خجلها المتلعثم كعبها العالي.

خرجتْ من بيتها ومشتْ نحو دمعتها المفضّلة، حيث دخلتها وجلستْ على مقعد .

طال انتظارها ولم يأت، ذبلتْ وردةٌ في ياقتها وأحمرُ شفتيها ذاب.

انكسر ظلّ كعبها العالي، بينما دانتيل فستانها يدخل في شحوبٍ هادئ، خيّم الليل على دمعتها فذرفتْ بصمتٍ منَ عينها.. حديقة.

جارٌ لا يحبُّ جاره

كسر بحنقِ العصفور حصّالته، جمع (تحويشة العمر) في كيسٍ ورماه على ظهره.

خرج من عشّه غاضباً وطار إلى المحكمة، حيث قدّم شكوى ضد متشرّدٍ (يشخر) أثناء نومه- أسفل الشجرة- بطريقةٍ غليظة.

استقبله القاضي باشّاً ومنحه وعداً بحلٍ مناسب، لكنّ هذا الحلّ قد يتأخر قليلاً،

لوجود الكثير من الشكاوى الأخرى لعصافير المدينة.

عكّاز

منذ أن كان صغيراً كان يمقت إشارة الاستفهام ، لهذا كان يفرُّ مذعوراً كلما شاهدها، أما هي فكانت تطارده وكأنها عاشقةٌ له.

سنينٌ كثيرةٌ مضتْ على هذه الحالة إلى أن شاخ وتقوّس ظهره.

خلال ذلك الصباح كان ينزل عن الدرج بصعوبةٍ، في مدخل البناء انتصبتْ أمامه إشارة الاستفهام وكانت قد أعدّت له كميناً مُحكماً، ثمَّ ابتسمت له بثقة .

هو.. بسط ساعده بهدوءٍ نحوها وبنظراته الباردة أمسكها، اتّكأ عليها كعكّازٍ وتابع سيره إلى السوق .

ذباب

قرّر أن يكتب قصيدةً فانتظر حتى استطالتْ ذقنه، اعتمر قبعةً داكنة الألوان .. شتوية، واتجه إلى المقهى.

أمام بابه لاحظ وجود الذباب بأعدادٍ كثيرة، يحلّق سعيداً. لوّح بيده وأسرع، فتح الباب ودخل، ليظلّ عدة أيامٍ في المقهى يحاول كتابة قصيدةٍ ولو نثريّة.

ثمَّ أحسّ أنّ جناحين صغيرين قد نبتا في ظهره، فحلّق متجهاً نحو الباب سعيداً.

انتقام

- لماذا لم تكتب الوظيفة؟.

- كنت أشتري دواءً لأمي يا أستاذ.

ترتفع كفُّ الأستاذ لتهبط على خدّ طفل السنوات العشر محدثةً صدى، عندئذٍ سقط من فمه سنٌّ كان قد مات.

حمل سنّه عن الأرض ورجع مع دموعه إلى المقعد.

في المساء خرج إلى حديقة المنزل لينبش حفرةً صغيرة كان قد دفن بها أسناناً أخرى سقطتْ في مناسباتٍ مختلفةٍ من فمه.

يضع فيها سنّه الأخيرة ويردم الحفرة ثم يسقي التراب كأساً من الماء.

ترحل سنواتٌ قليلةٌ لتنبت مكان الحفرة شجرةٌ صغيرة، تمضي سنواتٌ أخرى تزهر الشجرة ثم تثمر سكاكين .

أفضلُ ممثل

ماشياً على رجلين من ثقة عبرَ بوابةَ بناء المسرح.

فوق الخشبة تقمّص بأدائه هيئة شابٍ يسير على عكازين.

انتهتْ المسرحية فصفق الحضور بحرارة لأجل أدائه، ثم رجع إلى غرفته عبر الشوارع ماشياً على عكازين من خشب.

في حفل توزيع الجوائز، جائزةُ أفضلِ ممثلٍ نالها العكازان.

لغة العصافير

داخلَ غرفةٍ ذات إنارةٍ خافتةٍ في مخفرٍ للشرطة وضع شرطيٌّ الآداب القيود في معصميهما، ثمَّ ربط على فمهما حزامين من قماش، خرج وأقفل الباب خلفه .

طوال الليل كانا يتبادلان الحكايات والأحلام والفكاهات والابتسامات، وغمزات العيون.

سجناءُ الطوابق السفلى أصابهم الأرق بسبب الصخب الذي صنعاه.

في الفجر جاء الشرطيُّ وكتب على أوراقه ما كتب، ثمَّ أطلق سراحهما بكفالة ماليّة.

انقضت أشهرٌ على هذه الحادثة، خلالها ذهبا إلى كل حدائق المدينة ومقاهيها، ومقاعد باصاتِ النقل الداخليِّ المنتشرة في الطرقات.. لكنهما لم يستطيعا التفوّه بكلمة واحدة.

الشاب والفتاة صباح هذا اليوم التقيا باكراً، ثمَّ ذهبا إلى المخفر.

حنين

طفلةٌ مشاغبةٌ سرقتْ علبة المكياج أثناء غياب الأم ، ثم جلستْ أمام مرآتها وقلّدتْ أمّها بأن لونت وجهها بكلّ الألوان .

عندما انتهتْ هذه الطفلة سألتْ مرآتها: ـ هل أنا جميلة؟..

ابتسمتْ لها المرآة وأجابت: ـ نعم .. لكنك ما زلت صغيرة..

ثارتْ الطفلة غضباً، صرختْ وهي تحطّم المرآة : ـ أنا لست صغيرة .. أنتِ الصغيرة .

بعد سنواتٍ صارتْ صبيّةً تعمل مدرِّسة ، شدّها الحنين لطفولةٍ صارتْ بعيدة ، ذلك الحنين جعلها تسأل كلَّ طفلةٍ تدرّسها صباح كلَّ يوم دراسي جديد:

- هل لديك مرآة محطمة بحاجة لإصلاح؟.

تشرّد

الفضول أرهقه فسأل والده الجالس أمام التلفاز يشاهد مباراة لكرة القدم:

- كيف جئت؟.

بلا مبالاة عبّ الأب من سيجارته وأجابه:

- اذهب واسأل أمك.. هي التي أنجبتك.. أنا لا علاقة لي..

في المطبخ تعلّق بثوب أمه أثناء غسلها للأطباق وسألها:

- كيف جئت؟.

بلا مبالاة أجابته دون أن تستدير إليه:

- اذهب واسأل والدك هو الذي تسبب بمجيئك.. أنا لا علاقة لي..

بعد سنوات، في المخفر احتار كثيراً عندما سأله الشرطي عن عائلته .

تفكّكٌ عائليّ

امرأةٌ تجلس على قمة الصراحة ثمَّ تدين بحنقٍ ملامح وجهه.

ثمّة رجلٌ يلوذ بالصمت حاصر ملامح وجهه امتعاضٌ كثيف، يكتفي أثناء صراخها بأن يشعل سيجارة .

سُحبٌ من دخان سجائره حاصرتْ قمّتها فسعلتْ، طفلٌ كان يستلقي بأمانٍ في حضنها ممسكاً ثديها.. على إثر سعالها سقط، سقط حتى آخر الوادي .

حيث لا شيء هناك سوى شوارعَ معتمةٍ وأعقاب سجائر .

قصيدةٌ مؤقّتة

اقترب ملاك العفونة بخطاه الهادئة من قصيدةٍ ملقاةٍ على الطاولة.

صرختْ القصيدة بخوف: أرجوك.. أريد أن أبقى حيّة.

تمتم لها ملاك العفونة: أعتذر.. رائحتكِ تثير شهيّتي.

ذرفتْ القصيدة دمعةً ثم سألته: أيّ رائحةٍ لا تثير شهيّتكَ؟. حتى أرشَّ منها على جسدي.

ابتسم وأجابها: رائحة الحبّ.

ثم خطفها.

شاعرها رجع من المطبخ مع فنجان القهوة، لم يستغرب عندما شاهد الفراغ على سطح الطاولة، لأنه منذ سنوات.. كلّ القصائد الحماسية التي يكتبها تختفي فجأةً أثناء إعداده لفنجان قهوة.

تاج الدين الموسى

في عتمة غرفة العناية المشدّدة ، تمتمتْ شفتاه بوهن:

-أريد ماء..

-الماء ممنوع.. أرهقتني لكثرة ما صرخت لي.. نم الآن ..

بنبرةٍ جافةٍ أمره الطبيب المناوب، ثم استدار ومشى تاركاً المريض محاصراً بالأجهزة الإلكترونية.

طلعتْ بهدوءٍ وخجلٍ من خلف ستائر الغرفة، وعلى رؤوس أصابعها اقتربتْ بحذرٍ هذه الصبية الجميلة من سريره .

تأملها لهنيهة، تذكّرها .. كان قد شاهدها ذات مساءٍ شتويٍّ بعيدٍ وهو يقرأ جانب المدفأة في قصة «الآنسة والكبش» لـ (تشيخوف).

سقته الصبية برويةٍ كأس ماءٍ ثم فرّتْ مسرعةً إلى قصتها، قبل مجيء الطبيب المناوب .

ساعاتٌ سورياليّة

حبا عقله حتى نهاية الأريكة ورمى نفسه هناك بجانب الوسادة .

تثاءب فانسلّتْ بهدوءٍ من صدره رئته اليسرى لتجلس على يساره .

ثم بعد دقائق، و بصمتٍ تنسلخ أمعاؤه لتتمدد بلامبالاةٍ على يمينه .

تثاءب مجدداً.. عينه الأولى تسقط حتى ركبته لتستقر عليها، عينه الأخرى تسيل على وجهه مثلُ دمعةٍ ثم تلتصق على خدهّ .

قلبه شمّ رائحتها فقرع جرسه.

زوجته تدخل المنزل وتضع حقيبتها على الطاولة ثمَّ تقترب من الأريكة لتعيد تجميع جسده، الذي تفنّن الملل لساعاتٍ طويلةٍ بتفكيكه.

قاصّ

مرَّتْ ابتسامتها ذات صباحٍ أمام عيونهم أثناء انتظارهم في موقف الباص.

قال أستاذ الرياضيات:

- حجم ابتسامتها أربع سنتيمتراتٍ ضربُ ميليمترين.

قال أستاذ الجغرافيا:

- يحدّ ابتسامتها شمالاً أنفٌ ناعمٌ، وجنوباً ذقنٌ ملساء.

قال أستاذ التاريخ:

- ابتسامتها أشرقتْ في الألف الرابع قبل الميلاد، وآثارها لا تزال باقيةً حتى الآن.

قال أستاذ النحو:

- ابتسامتها تعرَب حسب الوقت، فصباحاً تكون حرف جرٍّ للقلوب، وفي المساء تكون مفعولاً مطلقَ التخديرِ على العقول.

صرخ الشرطيّ:

- ابتسامتها لم تضع حزام الأمان إنها تستحق مخالفة.

همس قاصٌّ بحزن:

- ابتسامتها قصّتي.. لكن كلّ زعماء الصحف والمجلات يحبّون الكآبة ..فلا ينشروها..

أحد الباحثين عن الحب

حاملاً عل كتفيه خيباته ذهب إلى محطة القطارات حيث جلس على الأرض قريباً من سكّتها وظلّ لليالٍ معتصماً هنا رغم البرد، لعل قطاراً ما يستجيب لطلبه، ويأتيه بفتاةٍ جميلة من مدينةٍ ما.

لم يتحقّق طلبه حزم أمره وذهب إلى محطة البريد، حيث جلس على الرصيف أمام البوابة، وبين يديه لافتةٌ يطالب فيها برسالة حبٍّ من عشيقةٍ ما لا يعرفها.. لكنّ رجال البريد لم يجلبوا له شيئاً، وبعد أيامٍ محت قطرات المطر كلمات لافتته.

جرّ قدميه بوهنٍ إلى مبنى الاتحاد النسائيّ، ليعتصم جالساً على درجاته مطالباً بحقّه في الحصول على فتاةٍ جميلة.

طال مكوثه هنا، ثمَّ - في ليلةٍ كانونيّةٍ باردة - كنسه عامل التنظيفات دون أن ينتبه له ليرميه مع الأوساخ في أقرب حاوية.

في الحاوية تكوّر على نفسه كطفلٍ ومات من شدة البرد والإهمال.

بعد أن تمّ دفنه ولأسابيعَ عدّة، فتياتٌ كثيراتٌ ذهبن إلى قبره مع باقات ورودهنّ التي غرسنها على عجلٍ في ترابه، ثمَّ التقطنَ لبعضهنّ صوراً للذكرى جانب قبره، لتعود كل واحدةٍ منهنّ من حيث أتت.

ديناصورٌ في طفولة أحدهم

تأمّلت المعلمةُ بذهولٍ ساعدَه وقد انحنتْ عليه:

- ما هذه؟..

سألته بتعجّبٍ لكنه ظلّ صامتاً من بين دموعه، ثمّ لمستْ بسبّابتها تلك البقعة الداكنة والواسعة فوق ساعده، فندّتْ عن شفتيه آهة ألم.

سألته بارتيابٍ ثانيةً:

- من فعل بك هذا؟..

بتلعثمٍ أجابها مازن الطالب في الصف الثالث وهو ينشج باكياً بهدوءٍ أخرس:

- إنها عضة كلب الجيران..

شهقتْ وهي تمعن النظرَ أكثر في ساعده، ثم تمتمتْ:

- هل هذه عضّة كلب أم عضة ديناصور؟..

عندئذٍ أرسلته إلى غرفة المستوصف في المدرسة وهناك راحت الممرّضة تضمّد ساعده الصغير وهي تغني له.

لم يكترث لغنائها ولا لبسكويتها ولا حتى لآلام ساعده، فمن خلف دموعه كان يتخيل خائفاً بسذاجة الأطفال، أنّ المعلمات سيتصلن بالشرطة التي سترفع بصمات العضة عن ساعده كما في مسلسل السهرة.

وبعد تحليلها ستحاصر سيارات الشرطة بيته، لتلقي القبض على والده لأنه قد عضّه ببشاعة مساء البارحة، وهو يحفظه جدول الضرب.

هجرة

انتظرته أعواماً طويلةً لكنّه لم يرجع كما وعدها بين آخر قبلتين من شفتيه لشفتيها أثناء الوداع في المطار، سافر ولم يتّصل بها أبداً أو يرسل رسالة.

سنواتٌ تمرّ وهي جالسةٌ بصمتٍ جوار شباك غرفتها تراقب الشارع ليلاً ونهاراً حتى في نومها ، علّه يظهر فجأةً مع حقائبه.

ثمَّ كان أن يئستْ، عندئذٍ صعدتْ حافّة شباكها في الطابق الثالث، ودّعتْ حياتها بدمعةٍ صامتة ورمت نفسها.

بعد ثوانٍ وبهدوءٍ طارتْ لتحلق عالياً في السماء، وانضمّتْ إلى سربٍ صغيرٍ لطيورٍ مهاجرة، طيورٌ اعتادتْ في كل موتٍ لها أن تهاجرَ حيث تحب.

خلود

في سرّه ابتسم هازئاً بهم، وهمس أبو الهول متهكّماً عليهم، وهو يراقب أولئك البشر ذوي الحياة المؤقتة، وهم يلتقطون الصور لبعضهم جانب أصابع رجليه:

-كم أنتم أغبياءُ يا أصحاب الحياة القصيرة..

رغم كلّ تلك العصور لكن أبو الهول لم يمل بعدُ من أبديّته، وسخريّاته من البشر. شعر بفخرٍ عظيمٍ لكنه سرعان ما تنهد، ثمَّ شرد بذهنه بعيداً وحزنٌ عميق يلف ملامحه. كالعادة، لا شيء يؤرق عليه أبديّته سوى أن القدر لم يشفق على قلبه حتى الآن بأن يبعث له بأي أمّ هول.

عندئذٍ ثمّة دمعةٌ حجريّة سالتْ على ملامح وجهه المتجمدة، بينما البشر جانب أصابع رجليه يلهون بسعادة ويلتقطون الصور مع حبيباتهم كذكرى لهم في حياتهم القصيرة.

بداية النهاية

قيلولة الظهر بلا مبالاةٍ ترتدي هذه الأنثى، لترمي بجسدها فوق السرير حيث غفتْ.

على بعد غرفتين ضجيجٌ مزعج لطفلٍ يحبو باكياً بين الأريكة والطاولة بلا مللٍ أو تعب.

على الأريكة ثمّة شابٌ يتجوّل بين عينيه غضبٌ عارم ومعدته ترقص جوعاً، لترتديه على عجلٍ سجائره بحنق.

من بين خيوط الدخان يرتكب همساً شتيمةً بحق دفتر العائلة .

ثمَّ يوقّع في سرّه بكلّ إصرارٍ على وثيقة سفرٍ إلى أقرب عاهرةٍ هذا المساء.

حياتُهم

تحوّلت تلك الحيرةُ إلى لونٍ غامق وراحتْ تلطّخ قماشه الفاخر.

هذا (الطقم الرجاليّ) ظلّ لدقائقَ في غرفته أمام باب خزانته يحدّق بأولئك الشبان المعلّقين في جوفها.

زفر بحنقٍ وحتى لا يدركه الوقت، حزم أمره والتقط ذلك الشابَّ ليرتديه على عجلٍ، ثمَّ خرج إلى الشارع وأسرع بخطاه إلى موعده مع حبيبته (فستان)وهو يتخيل بشوقٍ ما سترتديه من فتياتها الجميلات، في هذا الموعد الغراميِّ بينهما.

صور

في هذه الليلة الماطرة شرب زجاجتي نبيذٍ مزٍّ مع الكثير من السجائر في صمت غرفته.

صوره الشخصية المعلقة بكثافةٍ على الجدران حوله، راحتْ توجّه له الكثير من النصائح بصوتها البارد.

وحدها تلك الفتاة الجميلة في صورتها الوحيدة على رفّ المكتبة، ابتسمتْ له ابتسامةً دافئة.

بعد زجاجة النبيذ الثالثة كاد أن يتجمّد من زحمة تلك النصائح، عندئذٍ قفزتْ فتاته عن صورتها إلى أرض الغرفة، وثمّة خوفٌ في قلبها عليه، ثمَّ راحتْ تقصف بابتساماتها الدافئة تلك النصائح الباردة لصوره المتعددة.

كابوسٌ دافئ

يدٌ التقطته من كتفه بوحشيةٍ لتقذف به إلى هذه الغرفة ذات النافذة الواسعة، حيث كان ضوءٌ غامرٌ للشمس يعبرها ليعمّ أرجاء الغرفة.

ضوء الشمس وخز جسده وكأنه إبرٌ مدببة، تضايق كثيراً منه فأسرع بحنقٍ إلى النافذة وأغلقها.

لم يكد يلتقط أنفاسه حتى تناهى لأذنه صوت مدفأةٍ موقودة، استدار بهلعٍ إلى تلك الزاوية وراح يرمق برعبٍ تلك المدفأة، والدفء يتصاعد منها على هيئة أمواج، عندئذٍ تكوم على نفسه وراح يختنق ببطءٍ مميت.

فجأةً استيقظ وهو يلهث ووجهه شاحب، استعاذ بالله والتقط أنفاسه، ثم تناول عن جواره كأسَ ماءٍ باردٍ وشربه.

اطمأنّ إلى أنّه مجرّد كابوس، زفر بارتياحٍ وهو يحكّ تلك الجزرة المغروسة في وجهه كأنف.

بعد قليلٍ حلّتْ على روحه كثيرٌ من السكينة، وقتها.. استلقى وهو يتمنى لنفسه حلماً بارداً، ثم غطّ رجل الثلج في نومٍ عميق.

قلبُ رامي

منذ الصباح وحتى الظهر وهو جالسٌ على مقعدٍ في حديقة الجامعة ينتظر حبيبته ويدخّن سجائره، متجاهلاً كلّ محاضراته.. انتظرها طويلاً لكنها لم تأت.

عندئذٍ مشى رامي إلى مكتبة المحاضرات حيث أخرج قلبه من تحت قميصه، ثمَّ ناوله لصاحب المكتبة حتى يضعه عنده على الرفوف بين الأوراق كأمانةٍ لحبيبته عندما تأتي، ثمَّ خرج من الجامعة وهو يشعل سيجارة جديدة.

في المساء، هي وصلتْ إلى الجامعة وبكعبها العالي مشتْ إلى المكتبة لتشتري محاضراتها، وعندما اطمأنّتْ إلى أنّ محاضراتها صارتْ في حقيبتها طلبتْ من صاحب المكتبة أن يعطيها قلب رامي عن ذلك الرف.. إن كان ثمنه أقل من خمسين ليرة.

حياةٌ تطلُّ على شارعٍ شاحب

ما الذي ينقصني لأصيرَ من الخالدين؟..

لا أعرف.. مع أنني بحسب وجهة نظر أحد الأشباح الذين يسكنون في غرفتي، أنا أستهلك من السجائر والنبيذ ما يكفي قبيلةً من الخالدين. لطالما حلمتُ أن تكون جانبي فتاةٌ جميلة، أرمي بساعدي على كتفها كـ وشاح، في مشاويرَ زهريّة، وهذا ما لم يحدث خلال سنوات.

أظن أن الرائحة الكريهة للسجائر، التي تفوح مني ليلاً نهاراً هي السبب في عدم اقتراب الحبِّ مني.

المسافة بين غرفتي الضيقة وتلك الحانة المتواضعة، تقريباً ثلاث سجائر ذهاباً، إياباً.. الأمر معقد، بعد زجاجة نبيذٍ تصيرُ الشوارع أطول والأرصفة تتمدد.

كنت عائداً من الحانة وكلُّ شيء في هذا الليل الماطر يترنّح أمامي، لم أفهم سياسة السماء.. تبدو لي السماء غبيّةً جداً كـ أخي الصغير، تُرسلُ مطراً غزيراً لمدينةٍ لا تحتاج ماء، وسكّانها لا يتوسلون لها من أجل المطر، وتترك الصحراء بدون قطرةٍ واحدة، وأهلها يسجدون منذ عصورٍ لـ غيمةٍ لم تأتِ بعد؟!.

تبلّلت وكدت أتجمّد برداً.

انتبهت مصادفةً لوجود إعلانٍ تجاريٍّ ضوئيٍّ ضخمٍ على طرف الرصيف، لفتاةٍ جميلةٍ تلتهم بلطفٍ قطعة شوكولا، ترتدي فستاناً قصيراً بلا أكمام.

استغربت لأمر ثيابها رغم هذا البرد، خمّنت في سرّي أنّ يكون هذا الإعلان فيه تدفئة جيدة.

تسلّقت العامود بصعوبةٍ ثمَّ رميت جسدي إلى داخل الإعلان.

وقفت جانبَ فتاة الشوكولا، لم تتضايق من رائحة السجائر التي تفوح من كلّي.

رميت ساعدي على كتفها ثمَّ أشعلت سيجارة وأنا ابتسم.

العابرون بنا ـ تحت المطر ـ تأملوا متعجبين الإعلان على عجل، لم يستطيعوا أن يخمنوا هل هو إعلانٌ تجاريٌّ لـ شوكولا أم إعلانٌ تجاريٌّ لـ سجائر.

لا يهم، قررت أن أظل جانب هذه الجميلة، داخل هذا الإعلان المتواضع والدافئ إلى الأبد، شيءٌ جميل أن يعيش الإنسان في إعلان تافه يطلُّ على شارعٍ شاحب.

وأخيراً، بسبب هذا الإعلان الرخيص.. صرتُ من الخالدين.

لعنة القصص

ليلة البارحة خطرتْ في بال قاصٍّ يعيش في غرفةٍ فوضويةٍ فكرةٌ لـ قصّةٍ جديدة، أعجب بها جداً، وشعر بأنها تصلح لأن تكون قصةً قصيرةً مميزة، فحواها: (شابٌّ غريب الأطوار يعيش بعزلة، وهذه العزلة سرعان ما تبدأ بنسج هلوسةٍ مخيفةٍ له.. يفتح درج الطاولة فيطلع له فجأةً شبحٌ داكنٌ ليصفعه على عجلٍ صفعتين قاسيتين دون أيّ سبب، يفتح باب الخزانة، فيخرج الشبح ذاته ليصفعه بسرعةٍ صفعتين قاسيتين.. يفتح باب الحمّام.. يفتح كتاباً.. يفتح علبةَ مناديلَ ورقيّة.. يفتح علبة سردين.. وفي كلّ مرّةٍ يخرج له ذلك الشبح ليصفعه..

يهرب إلى التلفاز ويشغّله، فيخرج من الشاشة ذلك الشبح مع صفعتيه.. حتى عندما أراد أن يسكبَ الشاي.. ومن فم الإبريق، يطلع الشبح ليصفعه أيضاً.

راقتْ له الفكرةُ كثيراً، وريثما يعثر خياله على خاتمةٍ مناسبةٍ لها، قرّر أن يكافئَ نفسه بفنجان قهوة.

ذهب إلى المطبخ ووضع الركوة على الغاز، وهو يهمس في سره بخبث:

- بشرفي لأجنّنَ بطل هذه القصة..

ابتسم ابتسامةً شريرةً، وريثما يغلي الماء، قرّر أن يتناول أيّ شيءٍ ليزيل طعم الدخان من فمه.

فتح باب الثلاجة.. فجأةً، طلع منه ذلك الشبح وصفع هذا القاص صفعتين قاسيتين.

كذبة

مرّتْ على حالته هذه خمسُ سنوات، كلما وقف أمام المرآة في بيته المهجور، ينظر فيها ليشاهد نفسه على زجاجها بكل أناقته وبتسريحة شعره المميزة، تماماً كما كان قبل هذه السنوات الخمس.

الآن زفر بحنقٍ وقد ملَّ من هذه الكذبة، خبط المرآةَ بقبضته فانكسر زجاجها وتناثر على الأرض.

عندئذٍ، وفي الفراغ المعتم للمرآة ـ وكأنها كانت مختبئةً خلف الزجاج ـ شاهد جثّته لأوّل مرّةٍ بعد وفاته منذ خمس سنوات.

حكاية

في هذا المساء الشتويّ البارد، كانت الطفلة مستلقيةً أسفل اللحاف تمسح بكفها على شعر دميتها بحنانٍ وهي تحكي لها حكاية.

فجأةً، بدأ الجنود بتحطيم باب البيت بصخبٍ عال، ليداهم الخوف كلّ أفراد الأسرة وأقاربهم في هذا البيت.

الجارة التي كانت تختلس النظر من ثقبٍ في نافذتها المطلّة على مطبخ جيرانها، شهقتْ وهي تشاهد تلك الطفلة تدخل المطبخ مذعورةً تحضن دميتها إلى صدرها، ثمَّ- بدون وعي- تفتح باب الثلاجة لترمي منها رفوفها الفارغة وتجلس داخلها، ثمَّ تغلق بابها عليها.

بعد بضع ساعاتٍ انسحب الجنود من البيت بعد أن قتلوا كلّ من كان فيه، عندئذٍ أسرعتْ الجارة مع عدّة أشخاصٍ إلى هذا البيت، دخلته وحتى وصلتْ المطبخ تعثّرتْ بعدّة جثث.

فتحتْ باب الثلاجة، بصمتٍ سقطتْ هي ودمعةٌ بعد أن ارتعشتْ روحها. تكوّمتْ جانب البراد، غصّتْ بألمٍ وهي تصغي لهذه الحكاية التي كانت تحكيها الدمية، وهي تمسح بكفّها البلاستيكية بحنانٍ على شعر هذه الجثة الصغيرة.

لقاءاتٌ عاطفيّةٌ سرية

أكره كثيراً جيراننا في الطابق الثالث، وأكره كلّ شيءٍ له علاقةٌ بهم، حتى سيارتهم أكرهها.. إلا هي، وحدها فقط من بيت جيراننا في الطابق الثالث أحببتها.

قصةُ حبّي لها بدأتْ مطلعَ هذا الشتاء، لنلتقي كلّ ليلةٍ لدقائقَ طويلةٍ على سطح بنائنا. كم هي جميلة، كم هي دافئة. مرّة، ضبطَني أخي الكبير متورطاً بعناقها فحسدني، حذّرته وِقتها وهددته إن حاول أن يقترب منها.

هذه الليلة وبعد أن تناولنا خبزاً يابساً ولبناً على العشاء، اندسّ كلّ واحدٍ منا تحت لحافه، عندما تأكّدتُ أنّ أمي وإخوتي الكبار قد ناموا تسللتُ على رؤوس أصابعي من قبونا لأصعدَ السلالم حتى سطح البناء.

عندما شاهدتها رقصتْ روحي، رميتُ اللحاف الرثّ عن كتفي وركضتُ إليها.

جثوت أمامها وعانقتها، ما أجمل عناقها!..

كم هي دافئة، أحبها.. أحبها جداً وهي تنفث دخّانها الدافئ إلى الأعلى.

عندما أصير كبيراً سأتزوج هذه المدخنة الحجرية.

مشروعٌ تجاريّ

اشترى بناءً قديماً في منتصف السوق وخلال أشهرٍ قليلةٍ أنفق عليه أموالاً طائلةً ليصير أجمل بنّاءٍ في كلّ سوق المدينة، ناوياً افتتاح معرضٍ للألبسة النسائية الفاخرة فيه.

هذا التاجر وقبل أيامٍ قليلةٍ من افتتاح معرضه، وإثر نصيحةٍ همسها بأذنه أحد التجار القدماء، ذهب بسيارته في مشوارٍ طويل إلى أحد الأحياء الفقيرة على أطراف المدينة، حيث نزل إلى قبو أحد الأبنية الشاحبة، وعلى بابه تحدث مع عجوز وهو يناولها أوراقاً نقدية.

أدخلته العجوز إلى غرفةٍ باردة، تأمّل التاجر الفتيات المرتديات ثياباً رثّةً والمتناثرات في هذه الغرفة، ثم اختار بعضهنّ وأخذهنّ معه إلى سيارته.

في معرضه وبعد ترتيب البضائع على الرفوف، قام مع تلك المرأة العجوز بتنظيف الفتيات وإلباسهنّ نماذجَ من الألبسة ثم أدخلهنّ إلى الأقفاص الزجاجيّة المتناثرةِ في زوايا المعرض الواسع.

مساءَ الافتتاح، الكثير من الرجال والسيدات تجولوا في أرجاء المعرض مع كؤوس الشراب وهم يتأملون بمتعةٍ هذه الفساتين والمعاطف، لكن.. لا أحد منهم انتبه إلى تلك الابتسامات الباردة المختنقةِ بقهرٍ خلف الزجاج.

بكاء

بسبب ضيقِ الأبنية وازدياد عدد الطلاب خلال السنوات الأخيرة، قرّرتْ إدارة الجامعة إشادة بناءٍ ضخمٍ في الحديقة الخلفيّة للجامعة، الحديقة التي سحرتْ آلاف الطلابِ بجمالها خلال عشرات السنوات.

بدأتْ بعد أيامٍ قليلةٍ عدةُ آليّاتٍ ضخمةٍ بإزالة الحديقة بأشجارها ومقاعدها دون أي شفقة.

الطلاب المتفوقون جداً لم يكترثوا للأمر مطلقاً.

الطلاب العاشقون جداً كانوا يتأملون احتضارَ حديقتهم من خلف شبابيك القاعات، وهم يذرفون بصمتٍ من عيونهم كل الذكريات الجميلة.

الموسوعةُ الكاملةُ للصفعات

أثناء سنوات دراستها تلقّت العشرات من صفعات المعلّمات، لكنّ صفعةَ المديرة كانت الأقسى، عندما تلعثمت أمامها بترديد شعار الولاء للقائد العظيم.

صفعةُ صاحب المكتبة في ذلك الصباح القديم لم تكن قاسية، لكنها أخجلتها كثيراً أمام صديقتها عندما انتبه لها تحاول خلسةً أن تسرق قلماً لا تملك ثمنه.

في بيت أهلها لطالما صفعتها أمّها وأخوتها، وحدها صفعة والدها أدمتْ فمها بعد أن لمحها تتبادل رسائل الغرام مع ابن الجيران.

ذات صباحٍ لم تذهب إلى مدرستها الثانوية، إنما ذهبت مع سائق السرفيس إلى بناءٍ مهجورٍ وبعيدٍ عن الحي، وبعد أن مارس معها الجنس طلبتْ منه أن يتزوّجها فصفعها.. لم تفهم لماذا، لكنها عندما زوجّوها بعد أشهرٍ قليلةٍ من عجوزٍ فهمتْ أن الزواج هو مجرّدُ صفعة.

خلال أشهرٍ من زواجها لم تعد تذكر أيَّ صفعات زوجها كانت الأقسى، فصفعاته لها بمناسبةٍ ودون مناسبةٍ كلها كانت قاسية.

منذ أسبوعين تلقتْ أعلى عددٍ للصفعات في أقلّ وقت، عندما خرجتْ في مظاهرة فهجم عليها وعلى بقية المتظاهرين رجال الأمن، قبل أن تلوذ بالفرار.

الآن، وبعد أن ظلتْ مرميةً على الأرض لثلاث ساعات، نهضتْ كشبحٍ

لتمشي بتثاقلٍ إلى المرآة، حيث تأمّلتْ وجهها الشاحب.

رفعتْ يدها ببطءٍ ثم هوت بها على خدّها البارد لتصفع نفسها.. عندئذٍ لوثّتْ ملامحَ وجهها بالدماء المتخثرة لوريدها المقطوع.

سندريلا نحيلة

بوشاحٍ يغطّي وجهها، اقتربت بخجلٍ وهي تتعثر من بوابة قصره، والجوع والبرد كذئبين شرسين ينهشان جسدها النحيل ذي الثياب الرثة.

كادتْ أن ترّن الجرس عندما لمحته عن كثبٍ على شرفته بين فتياتٍ جميلاتٍ وطاولةٍ عامرةٍ بأنواع الطعام والخمر.

خجلها خنق روحها، استدارتْ لترجع من حيث جاءتْ.

هو لمح امرأةً ما تبتعد عن باب قصره في هذا الوقت المتأخر من الليل، ارتاب منها فصرخ على الحراس أن يطاردوها ليجلبوها إليه حتى يعاقبها جزاء اقترابها من قصره وتجسسها على سهرته الجميلة.

خرج الحراس وعندما رجعوا بعد ساعات أخبروا العقيد أنّهم لم يعثروا إلا على فردة حذاء تلك المرأة التي اختفتْ قبل أن يصلوا إليها.

غضب جداً العقيد ثم ارتدى ثيابه العسكرية و ذهب بسيارته إلى الثكنة العسكرية التي يتزعمها.

جمع جنوده وأعطاهم فردة الحذاء وطلب منهم التوجه إلى المدينة القريبة ووضع الحواجز وإجبار النساء على دسّ أرجلهنّ في هذا الحذاء ثم اعتقال من يتطابق حجم رجلها مع حجم الحذاء.

بعد أيام دخل إليه في مكتبه أحد جنوده ليخبره بأنه تم اعتقال صاحبة الحذاء في أحد الشوارع الفقيرة من المدينة، ثم أردف له الجندي وهو يبتسم بخبث: ـ بعد إن استضفناها في الزنزانة اعترفتْ بأنها تعمل لصالح عدّة أجهزة استخبارات أجنبية.

ضحك العقيد وأمره بإحضارها إلى مكتبه.

بعد قليلٍ فتح الباب ورموا إلى داخل مكتبه امرأةً على الأرض، نظر إليها العقيد وهو يشعل سيجاراً فاخراً، وقفت المرأة بوهنٍ وهي ترفع رأسها إليه، تأمّلها ثم شهق وسيجارته تقع من بين شفتيه غير مصدّقٍ لما يراه.

تذكرها بعد أن كان قد نسيها منذ أن هاجر من قريته قبل ثلاثة عقود، ذابتْ ملامح وجهه وكأنها مخلوقةٌ من ثلجٍ، أمامه.. كانت أمّه العجوز تقمع داخل عينها دموعها، حتى لا تسيل فتمسح عن خديها آثار الصِفعات.

كاتب القصص

في صباحٍ شتويٍّ كئيبٍ للغاية، مات كاتب القصص بعد غيبوبةٍ قصيرةٍ في غرفة العناية المشددة، رُغم أنف كلّ الأجهزة الموصولة بجسده.

بعد دفنه بأيامٍ قليلة، ابنه الصغير قطف بعض الورود وذهب إلى المقبرة ليزور قبر والده. على بعد ثلاثة قبور توقف متفاجئاً وهو يختلس النظر وثمّة دهشةٌ عارمةٌ تستبيح وجهه.

هنالك.. حول قبر والده، تناثرتْ عدة قصصٍ كبلّورٍ مكسورٍ وهي ترتل بخشوعٍ ما تيسر لها من سردٍ عذب.

صفعةٌ لا مرئيّة

بعد بضع آهاتٍ ناعمةٍ منها في عتمة غرفة النوم انتشى زوجها، ثم استدار وأشعل سيجارةً ليعبّ منها بتعب، هي نهضتْ عن السرير لتذهب إلى الحمام حيث استحمّتْ وأمام المرآة أعادتْ تمشيط شعرها وقليلاً من الحمرة لشفتيها، لفّتْ جسدها بمنشفةٍ زهريةٍ ورجعت إلى غرفة النوم وهي تدندن بلحن أغنية وتتمايل.

على السرير صفعها بلا رحمةٍ شخيرٌ عالٍ لزوجها ناسياً حتى سيجارته، فانكسر خاطرها.

تنهدتْ، جمعتْ فواكهَ جسدها وذهبت إلى المطبخ، ثمَّ وضعتها في الثلاجة.

إنجازات

كانت أمّهم قد أعدتْ لهم طعام العشاء بعد يومٍ طويلٍ أمضوه في مظاهرة مع كلّ أبناء المدينة، ثلاثتهم مع أمهم تجمعوا حول الأطباق على أرض غرفة الجلوس غير آبهين لصوت التلفاز، وعندما همّوا بتناول لقمتهم الأولى هبطتْ على سطح غرفته قذيفة أطلقها من بعيد الجنود.

بعد دقائق تحاملتْ الأم على نفسها رغم جراحها لتنهض بصعوبةٍ عن تلك الزاوية، لوّحتْ بوهنٍ أمام وجهها لتبعد سحب الغبار والدخان.

عندئذٍ شاهدتْ جثث أولادها الثلاث متناثرةً في أرجاء الغرفة كيفما اتفق.

بذهولٍ التفتت حولها وهذا الموت المفاجئ قد شلّ عقلها، تناهى لأذنها صوت التلفاز الذي نجا من القذيفة، نظرتْ إليه لا شعورياً.

هناك.. منتصف الشاشة، كان رئيس الجنود بأناقته المعتادة وصوته اللطيف يتحدث بإسهابٍ عن إنجازاته.

شقيقان

عندما كانا صغيرين وذات صباح، الشقيق الأصغر لمح شقيقه الصغير يتسلل خلسةً إلى حقيبة والدته ليسرق منها بضع ليرات، وهما في طريقهما للمدرسة الصغير اشترى بتلك الليرات قصةً مصورةً من المكتبة.

في صباح اليوم التالي، الأصغر قلد شقيقه فتسلل هو الآخر إلى حقيبة والدته وسرق منها بضع ليرات، وخلال الطريق إلى المدرسة اشترى بها قطعة حلوى ثم التهمها بنهمٍ دون أن يعطي شقيقه شيئاً منها.

بعد عقودٍ، وكان قد صار للشقيقين عدة أبناء.

واحدٌ منهما صار أهمّ كاتبٍ في المدينة، بينما الآخر صار أحد أكثر سكان المدينة بدانة.

زوجة شاعر

عندما حلّ المساء كانت آخر المعزيات قد ذهبتْ لتظلّ زوجة الشاعر الذي توفي من يومين وحيدةً في هذه الغرفة.

وهي على الأريكة تأملتْ طاولة زوجها في تلك الزاوية، حيث الأقلام والأوراق والكتب متناثرةٌ فوقها جانب رفوف المكتبة، الطاولة التي ظلّ يكتب عليها خلال حياته أغلب قصائده.

ومجدداً أجهشت بالبكاء، لساعاتٍ ظلتْ روحها تائهةً بين الدموع والذكريات.

بعد منتصف الليل تناهى لأذنها صوت خربشةٍ ما، رفعتْ رأسها فشاهدتْ زوجها ينزل كطفلٍ مشاغبٍ عن صورته الكبيرة المعلقة على الجدار ليمشي مسرعاً إلى طاولته حيث جلس، أشعل سيجارة.. طلب منها فنجان قهوة، ثمَّ بدأ بكتابة قصيدته الجديدة.

دورةٌ شهرية

منْ سوء حظها لم تعثر هذا اليوم على نسخةٍ من الجريدة الرسمية للحزب الحاكم.

دبابةٌ مراهقةٌ في دورتها الشهرية هذه حاضتْ، فسالتْ من بين عجلاتها الخطابات الحماسية لزعيم البلاد.

هدية

تسلل هذا الطفل المشاغب مرةً ثانيةً إلى المطبخ ليسرق من الثلاجة قطعة حلوى أخرى والتهمها على عجل، والدته المنهمكة باستقبال صديقاتها وجاراتها صرختْ عليه فابتلع آخر لقمةٍ دون مضغ، مسح بكمّه على شفتيه وأسرع إلى أمه وهو يرتجف خوفاً.

طلبتْ منه أن يذهب إلى الحانوت ليجلب لها علبة مناديلٍ ورقية.

ذهب إلى الحانوت واشترى علبة مناديلٍ ورقية بسعادة، وعلى الأرصفة كان يخمّن الهدية المختبئة خلف الفم الكرتوني للعلبة، قطعة شوكولا أم قلم أم ممحاة أم؟.

نفذ صبره فنزع الفم الكرتوني للعلبة ثم دسّ داخلها أصابعه ليخرج صورةً ما.

حدّق الطفل بها فشاهد صورة زعيم البلاد، عندئذٍ.. وعلى الرصيف تقيأ قطعتي حلوى كان قد التهمهما منذ برهة.

شجرةٌ شاحبة

في ذلك المساء الشتويّ دعاها مرةً أخرى لحضور فيلمٍ في تلك الصالة، ناوياً في سره ـ كما اعتاد في كل مرة ـ انتهاز فرصة العتمة في الصالة ليختلس القبلات الدافئة من شفتيها، فتنمو بينهما أكثر شجرة الحب.

هي أيضاً كعادتها، تناستْ ما يفعله معها أثناء عرض الفيلم ووافقتْ بابتسامةٍ خجولةٍ على الدعوة.

في عتمة الصالة، بطلة الفيلم بتعرّيها الشهيّ أنستْه وجود حبيبته إلى جانبه، حبيبته التي فتكتِ الحيرةُ بروحها وهي تنتظر قبلاته، لكن الفيلم انتهى ولم تأتِ القبلات.

خرج من الصالة ناسياً حبيبته داخلها وقد سحر عقله وخدّر كل خلاياه الجسدُ العاري لتلك الممثلة الشهية.

بعد ثلاثة أيام وسبعون سيجارة تذكر حبيبته، شهق وأسرع إلى صالة السينما يركض في الشوارع بجنون.

دخل الصالة وهو يلهث، نظر إلى كرسيّها فشاهد شجرةً شاحبةً قد نبتت هنا، وعلى أغصانها ألف دمعة، وحسرة.

تبوّل

على عجلٍ وبكلّ يأسٍ جمعوا أطفالهم مع الكثير من الخبز داخل هذا القبو المظلم والضيق، خوفاً عليهم من القصف العشوائي وتقدّم الجنود.

ودعوهم بقبلاتٍ حزينةٍ ثمَّ أغلقوا عليهم الباب ومضوا إلى الحرب.

الأطفال في العتمة تلاصقتْ أجسادهم الصغيرة ببعضها كأرانب خوفاً من صدى الانفجارات.

لأيامٍ ظلت القذائف تمطرُ بغزارةٍ على الأبنية المجاورة، وعلى دويّها كانت جدران هذا القبو تهتزّ بشدة، ليتبوّل الأطفال بهلعٍ لا إرادياً.

بعد بضع مئاتٍ من القذائف، كان سائلُ بول الأطفال المرعوبين قد علا حتى لامس سقف القبو. غرقوا في بولهم ليتمددوا ـ بشكلٍ فوضويّ ـ موتى على أرضية القبو.

في تمام القذيفة الأولى بعد المئات منها، جثث الأطفال المتناثرة في قاع البول، تبوّلتْ بهلعٍ مجدداً.

مشاجرة

لا مباليةً لوجوده على بعد مترين منها، راحتْ تسرّح شعرها أمام المرآة وهي تدندن لحن أغنية مشهورة، ثمّة انزعاجٌ كثيفٌ انتشر خلال هذه الساعات على وجهه.

لا يخطئ من يتأمله فيشعر أن السيجارة هي التي أشعلتْه وراحتْ تعبُّه بنزقٍ حاد.

تجاهلُها الطويلُ له فجّر غضبه المكبوت، فصرخ بها من خلفها: (نحن الذين صعدنا إلى القمر).

تابعتْ تسريحها لشعرها، ثم أجابته بثقةٍ همساً وبلا مبالاة: (نحن اللواتي خلقن القمر).

غسيل

كان جاثياً على ركبتيه أمام الفوّهة الدائرية للغسالة، يدسّ داخلها ثيابه ليغسلها. انتبه صدفةً لبقعةٍ حمراءَ على قماش أحد قمصانه فتأملها طويلاً.

تذكّر أنها بقايا أحمرِ شفاهٍ لقبلةٍ من تلك الفتاة الجميلة، التي انحنت على صدره منذ أشهرٍ قليلة فوق مقعدٍ في حديقة الجامعة لتترك على قميصه قبلةً ناعمة، بينما أصابعه تداعب بلطفٍ شعرها.

بعد أيامٍ قليلةٍ تشاجر معها، لينساها خلال هذه الأشهر.

تنهد بحزن وصور تلك الجميلة تعوم كإوزّاتٍ شاحبةٍ على سطح ذاكرته.

زفر ونهض ليمشي إلى غرفته حيث علق قميصه ذو القبلة على المشجب، رجع إلى الغسالة، جثا ثانيةً أمامها، أخرج منها الثياب، تنهّد مجدداً.. ثمّ رمى بنفسه إلى داخل الغسالة، وأغلق عليه بقوة بابها الدائري.

على جدار مرسم

على جدران مرسمه ذي الفوضى الهائلة كانت لوحاته التي رسمها خلال سنواتٍ معلقة، كلها إما لمناظر طبيعية أو للحارات القديمة.. فقط لوحةٌ واحدةٌ هناك، منتصف ذلك الجدار كانت لوجهٍ أنثويٍّ جماله عصيٌّ على الوصف.

تخيّلها ذات سكرةٍ ليرسمها ببراعة منذ سنوات، ومن وقتها وكلما نظر إلى فتاة هذه اللوحة يتبادل معها ابتساماتً حلوةً لحبٍّ هادئ.

منذ بضعة مساءات كانت روحه قد ضجرتْ من رسم الطبيعة والحارات، فخطر على باله أن يرسم فتاةً ثانية.. استعان بريشته وألوانه وبعدة زجاجاتٍ من النبيذ، وظلّ يرسم عدة ليال.

الآن انتهى من الرسم، أشعل سيجارةً وهو يتأمل جمال فتاة اللوحة الجديدة، تجرّع ما تبقى من نبيذٍ في هذه الزجاجة ثم رماها بعيداً، حمل اللوحة ومشى مترنّحاً إلى الجدار ليعلّقها جانب لوحة الفتاة الأولى.

استدار ومشى عائداً إلى كرسيه منتشياً باكتمال لوحته الجديدة، توقف فجأةً عندما علا خلفه في فضاء مرسمه صخبٌ حاد.

التفت مستغرباً فشهق مندهشاً وهو يرى هاتين الفتاتين وقد انحنيتا من لوحتيهما ومدتا أيديهما لبعضهما، لتنخرطا في مشاجرةٍ ناعمةٍ بالألوان المائيّة.

الحارس

كعادته كلّ ليلة، كان ماهر ذو الرداء الأبيض جالساً بصمتٍ على الكرسي في تلك الزاوية في عتمة الغرفة، يراقب عن كثبٍ هذا النائمَ على السرير.

بعد منتصف الليل بقليل، هذا النائمُ على السرير صار يتنفسّ بصعوبةٍ وهو يتمتم بكلماتٍ غير مفهومةٍ متلعثمة، وثمّة عرقٌ غزيرٌ ينضح من جبينه.

انتبه إليه فأسرع ماهر بردائه الأبيض إلى النائم، وهزّه من كفته ليوقظه من هذا الكابوس، وقلبه يكاد ينفطر عليه.

لم يستيقظ، انحنى عليه وهمس له في أذنه بما يشبه التعويذة: (نسرين تحبّك).

عندئذٍ استيقظ وهو يلهث، شرب كأس ماءٍ ثمَّ تنفس الصعداء وكابوسه يتلاشى.

ابتسم بفرحٍ وهو يتخيّل حبيبته نسرين، استلقى مجدداً وهو يحضن الوسادة إلى صدره ليقبّلها بلطفٍ ويتخيّلها حبيبته.

ثمَّ غطَ ماهر ذو (البيجامة) الزرقاء في نومٍ عميق.

حلوى

هذا الطفل الفقير كان يومياً وبحسرةٍ يطيل التأمل في الطاولة المليئة بأنواع الحلوى أمام باب متجرها عند ذهابه ورجوعه من المدرسة، ليلعق في نهاية كلّ تأملٍ شفته السفلى، ثمَّ يمسح بكمّ قميصه سائلاً أصفرَ يسيل من أنفه خلال تأملاته لطاولة الحلوى.

هذا الصباح سألته المعلمة في الحصة الدراسية: (ماذا تريد أن تصير في المستقبل حبيبي؟).

أجابها بصوت متحشرجٍ وثمّة دمعةٌ في عينه: (أتمنّى أن أصير ذبابة).

عندما انحرفتُ مع الأرملة

أنا يا جماعة، قررتُ أن انحرف.

- أبو الفوارس، أريد أن انحرف، ساعدني بخبرتك..

- اقرأ كتابي (كيف تنحرف في خمسة أيام)..

- يستر على عرضك، بدون قراءات.. توجيهات كريمة على السريع، ولك زجاجة فودكا ثانية، أريد أن انحرف مع جارتنا الأرملة..

- أنت اختصاصك أرامل ومطلقات..

الحقير فراس، ابن الأقلية الفودكاوية.. كلما شربنا في الحانة يأخذ علبة سجائري، وكأن سجائري.. تطمينات.

ضاقت عليّ هذه الحانة، شربتُ كأس عرق آخر.. روحي مثل البلاد، ذاهبة نحو التقسيم.

على الهاتف، أمي غير مهتمة لقذائف الأصدقاء والأعداء على حارتنا، تصرخ:

- الله يرضى عليك لا تنحرف..

يخطف أخي الصغير السماعة منها.

- ولاااه، إياك أن تنحرف مع بنت تركية، انحرف مع بنت سورية.. أبناء مظاهرات نحن، كل شيء إلا سمعتنا الوطنية.

يعجبني كثيراً هذا الديناصور الصغير، بعد مئة مظاهرة اعتقلوه حماة الفزاعة، كان كلَّ ليلة بعد إرجاعه إلى الزنزانة إثر حفلة تعذيب في فرع الأمن

السياسي، يجلس، يبتسم.. يشعل سيجارة وهو يضع ساقه المكسورة على ساقه المشوهة، ثمَّ يشرح للمعتقلين الشباب الطرق المضمونة لـ (تطبيق) بنات المدرسة الثانوية، مع ضرورة وجود (موتور) وأهمية (التشبيب) كعنصر ساحر لـ (المسطولات)، جمع (مسطولة) وهي - بحسب قاموس حارتنا لحمدو المنهوج - المراهقة الضائعة بين أغنيات هاني شاكر.

كلُّ الأغنيات، ذاهبة إلى التقسيم.

صباح هروبي من سوريا، قال لي الديناصور الصغير:

- اهرب من هنا، البلاد خرِبت.. أنت لك مستقبل، كاتب وابن جامعات وجميل، تلحس حالك، نحن الفاشلون سنبقى هنا، في هذه البلاد، أرسل لنا عرقاً برحمة أبيك..

وهربتُ بحقيبتين وكتب كثيرة وورقة عليها مقادير طبخة الأرز، قرأتُ كلّ الكتب ولم أقرأ هذه الورقة.

في ذلك الصباح البارد بعد كلام أخي، بكت بيوت الحارة، والمظاهرة.. صار فستانها أطول.

- يا بني، برحمة أبيك لا تنحرف، إن انحرفت كلُّ الأديان سوف تزعل منك..

- أمي، الله يرضى عليك أنتِ.. حلّي عني، ثمَّ أنتِ شبعانة من زمان..

- يلعنك يا حقيييير...

- ههه تكبيييير...

متأكد، وحده نهد الأرملة سوف ينقذني من هذه الوحدة الموحشة.

- ما رأيكَ بـ فستاني؟

سألتني الأرملة بدلال عذب عندما دخلنا الحانة.

- بصراحة، ليس لدي خبرة في الفساتين، لكن لدي خبرة في السيقان الجميلة، أستطيع أن أعطيك رأياً مهماً في ساقيكِ..

ما أجمل رب ضحكتها ولكمتها الناعمة على كتفي، لا تمت أيها الديناصور الصغير بقذيفة للأصدقاء، حتى لا يشمت بنا التاريخ.

- أريد أن أعمل هنا في الخياطة، ماذا تنوي أن تعمل؟

- أحاول أن أفتتح دكاناً للبوظة أمام ثانوية للبنات، بوظة على الفحم، مدقوقة وفقاً للشريعة الإسلامية، لحس حلال..

شربنا كثيراً ورقصنا مخمورين بين الطاولات كمهرجين في مسرحية شاحبة، كلُّ المسرحيات.. ذاهبة إلى التقسيم.

- ما رأيكِ أن نشرب كأساً آخر في غرفتي؟..

غمزتها فابتسمتْ بخجل، أنا قادمٌ أيها الانحراف، صرختُ على سائق سيارة الأجرة أن يسرع.

خلفه، شرعنا بقبلات شهوانيّة، الديناصور الصغير راح يهذي في المرآة العلوية للسيارة، زوجها المقتول تسلل من العالم الآخر وصار يخبط بجنون بقبضتيه على زجاج الشباك جانبي.

أمص شفتها السفلى.

- سنبقى في هذه البلاد، نحن الفاشلون، نحن الفاشلون..

أصابعي تتمشى على فخذها.

- يا حقير، ابتعد عن زوجتي، عندما تأتي إلى العالم الآخر سوف أنحرف معك كثيراً، يا حقير.. يا حقير..

وضعتُ كفي على نهدها.

- الله يرضى عليك لا تنحرف..

باحتْ بآهة طويلة، انحرفتْ بنا السيارة، لتصطدم بـ عامود كهرباء، انقلبتْ عدة مرات ثمَّ استلقتْ على الرصيف وهي تحترق ببطء.

خرجتُ بصعوبة من حطامها، سحبتُ الأرملة والدماء تسيل من وجهها، صرختُ بها، مسحتُ على ملامحها، حضنتُ جثتها.

فجأةً، اقتربتْ منا لتتناثر حولنا كأطياف شفافة، في صمت ليل هذا الشارع، نظرتُ بخجلٍ إليها، ذبحني الندم، كلها.. رمقتني بحزن، حاولتُ أن أبرر لها، لكن كلماتي اختنقتْ في حلقي.

تأملتها، كانت كلُّ الأديان، زعلانة منّي.

فهرس المحتويات



مصطفى تاج الدين الموسى

من مواليد (١٩٨١) بدأ حياته الإبداعية ممثلاً مسرحياً إلى جانب كتابته القصص. حاز على العديد من الجوائز في مجال القصة القصيرة سورياً وعربياً. كتب ونشر في العديد من الصحف العربية كما ترجمتْ له عدة قصص إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية، وكُتب عن قصصه عدة مقالات ودراسات.

درس في كلية الإعلام جامعة دمشق وهو مقيم حاليا في تركيا.

صدرت له المجموعات القصصيّة التالية:

١ـ (قبو رطب لثلاثة رسامين) تضم ١٢ قصة قصيرة, في طبعتين:

أـ الطبعة الأولى في الإمارات عن دائرة الثقافة في حكومة الشارقة (٢٠١٢).

ب ـ الطبعة الثانية عن دار نون في سوريا (٢٠١٣).

٢ ـ (مزهرية من مجزرة) عن دار بيت المواطن للنشر والتوزيع، الرابطة السوريّة للمواطنة ـ بيروت ـ ضمن السلسلة الأدبيّة الشهريّة (شهادات سوريّة) العدد السابع (٢٠١٤).

٩٩ قصة قصيرة، مشغولة بعناية.. وكأن صاحبها خياط يحوك بهدوءٍ أثواباً متنوعة الألوان والأحجام، بحرفية عالية ومخيلة مبدعة.

الدهشة هنا لن تبدأ مع (الخوف في منتصف حقلٍ واسع، ليلة باردة للقهر المختبئ تحت السرير، الجميلة النائمة في عربة قطار) ولن تنتهي مع (الفيديو المسرب لقبلتنا الحلوة، نهاية لوحة، عندما أسأت إلى سمعة السعادة الأبدية في الجنة، متشرد)

تتوالى العناوين وتتعدد، وتظل الدهشة سيدة كل الأسطر، أسطر ترسم في المخيلة قصصاً فريدة من نوعها، تحفر بهدوء عميقاً في النفس البشرية، مرة بسورياليّة عبثية قاتمة، وكأن الموت هو حقيقة الوجود الوحيدة، وتارة بسخرية سوداء ترسم ابتسامة مريرة، ودائماً بسردٍ إنساني عذب يثير الأحاسيس الداخلية.

وفعلاً، كما كتبت عنه الدكتورة نجاة عبد الصمد: «هكذا يتملّكك مصطفى تاج الدين الموسى وأنت تقرأه، ويشدّك من أُذن قلبك إلى عالمه المتخيّل»

الناشر

نشر هذا الكتاب بالتعاون مع
جائزة المزرعة
للإبداع الفني والأدبي

المتوسط

ISBN 978-91-87373-84-8
9 789187 373848